قادتني إلى هنا

رواية

الطبعة الأولى يناير ٢٠٢٠

الكتاب : قادتني إلى هنا

المؤلف : محمود نصر الله

تدقيق لغوي : ياسمين محمد أحمد

تصميم الغلاف : محمد دربالة

رقم إيداع : ٢٣٥٥٣ - ٢٠١٩

ترقيم دولي : ١ - ٩ - ٨٥٥٥٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

دار مسار للنشر و التوزيع

01020439639

massar.pub1@gmail.com

ش - حسن خطاب - قسم يوسف بيك
- الزقازيق - الشرقية

محمود نصر الله

قادتني إلى هنا

مسار
للنشر و التوزيع

إهداء

أهدي هذه الرواية إلى كلِّ روحٍ عتَّمها القدر ، وصبغها بالسواد والكآبة .. إلى كلِّ شخص تلاعبَ به البشر وتجرَّع من الخذلان والغدر ما يُقصي شعور الحياة بداخله .. إلى كلِّ شخص راودته فكرة الانتحار ؛ هرباً من فجاعة الحياة ومرارة أقدارها .. إلى كلِّ شخص فُتِّت أمامه أحلامه وهو غيرُ قادرٍ على أنْ يحركَ ساكناً ، قد شَلت حركته صدمات الحياة المتتالية .

إنني أهدي هذه الرواية إلى كلِّ أنثى مُتغطرسة قد اغتالت أحلام رجل .. وإلى كلِّ رجلٍ مُتجبِّرٍ قد انتهز ضعف أنثى فهشمها !!

رجاءاً ! كفاكم تمزيقاً وتوحُّشاً .. لقد هلك أغلبنا بفعل الحبِّ ونواتج تغطرسكم وتجبركم هذه .. أتمنى أن ينتهي الخذلان وأن يندثر البؤس ، فالحبُّ بريءٌ منكم إلى الأبد .

أهدي هذه الرواية إلي كل شخص قد عاندته الحياه كثيراً وآلمته فظاعة مصائرها طويلاً .. صبراً يا عزيزي إنني أُجزم لكَ أن الفرج آتٍ لا محالة. »

أهدي لكم رواية .. « قَادَتْنِي إلى هُنَا »

المقدمة

« بدأت الحياة تضعني علي المحك عندما قيدتني بالحب ، ولو أنني لم أكن من أولئك المُتيَّمين بالعلاقات ، إلي أن تم اصطيادي أسيراً له في ثانيتين ، ومنذ تلك اللحظة وأنا أركض وراء السراب .. يلتصق برأسي واقعٌ وأعيش آخرَ مُغايراً له .. أتمنى أشياءاً وأحوز أخرى لا أريدها .. وللأسف كان قلبي موطن كوارثي ، ومنبع معاناتي .. ذاك الذي باع نفسه دفعةً واحدةً ، وأدرج نفسه تحت مقصلة الأقدار الخادعة ، جعلني أعاني أشدَّ المُعاناة ، قتلني مرتين .. لا ، بل قتلني مرة من ثم أعادني للحياة ؛ ليقتلني بطريقة أشد بشاعةً من سابقتها .

في الواقع إن لم يتدارك الإنسان حقيقة البشر من حوله ، فإنَّه سيكون طُعماً سهلاً للحياة ، وإن لم تَكُ صلباً بما يكفي فحريٌّ بك أنْ تستعدَّ لحروبٍ تفتك بك ليلةً تلو الأخرى . «

« قادتني إلى غدٍ يحمل في طيَّاته موتَ أمسٍ .. مُشرقٌ في صباحه
؛ رعباً من تكرار موتِّ الأمس »

في إحدي صباحات فبراير المُشمِسة استيقظت من النوم والنشاط يدب في جسدي لا أعلم يبدو اليوم مختلفًا عن سابقه، أسرعت في ارتداء ملابسي لقد تأخرت عن محاضرة الرياضيات، والدكتور المعني بشرح المادة لا يحب التأخير أبدًا؛ لذا أسرعت بتجهيز نفسي والرحيل سريعًا إلى الجامعة. في الموقف أحد السائقين ينادي: (واحد جامعة)، رفعت يدي إليه وركضت للحاق بذلك الكرسي حتى لا أتأخر، لم أنظر مَن بجانبي في الميكروباص ولكني كنت مهتمًا بالنظر إلى هاتفي لمراقبة الساعة، ومهاتفة أحد الزملاء لنتقابل على باب المدرج، ولكن صوتًا رقيقًا بجانبي يقول لي: تفضل هذه أجرتي، نظرت إليها ولكنني تمسمرت مكاني وعيناي لا تريدان الانزلاق عنها، ولكنها رددت مجددًا: اتفضل، فتلعثمت بالكلام أمامها وأخذتني عفويتي قائلًا بصوت منخفض لنفسي: هو مفيش غيري بيلم الأجرة كل يوم ولا إيه؟! ولكنها سمعتني فابتسمت قائلة: خلاص أنا هلمها، فضحكت لها قائلًا: إلا النهارده فأنا حبيته. ابتسمت ابتسامةً لربما ظلت طوال الطريق تُداعب مخيلتي، قلبي يدق فرحًا وأنا جالس بجانبها، لا أعلم الكثير عن النساء ولم أكن مهتما بهن من قبل ولكن لا أعلم ما الذي يجري

لي الآن؟! هذا غير طبيعي بالمرة، وبينما أنا أفكر بكل هذا شعرت بالحزن لانتهاء الطريق وأنني سأفارق الجلوس بجانبها، لم يتبقّ إلا خمس دقائق على بداية المحاضرة ولكن قلبي قادني كالأبله لمعرفة أي كلية تدرس فيها تلك التي سرقت عقلي في الميكروباص، أكملت الطريق وراءها حتى علمت أنها تدرس بكلية العلوم، تأخرت قليلًا عن المحاضرة وزميلي يرن على هاتفي ووبخني لتأخري، كنت حينها أدركته أمام المدرج وطرقنا على الباب ودخلنا، ولكن الدكتور ردنا خائبي الأمل لتأخرنا، شعرت بالحزن لأنني تسببت في طرد زميلي معي، فاعتذرت له ولكنه قابل الأمر بصدر رحب فهو لم يكن مجرد زميل، فهو صديق لي منذ الطفولة. أخذته إلى الكافتيريا لنفطر ونشرب القهوة كالمعتاد، ولكنني صارحته بسبب التأخر فتفهم الأمر قائلًا: وايه العمل لما ضيعنا المحاضرة من غير فايده..؟قاطعته قائلًا: لا أكيد هنعمل حاجه ، قلت له لنذهب ونجلس أمام بوابة كلية العلوم، ذهبنا وجلسنا وبالكاد عيناي لم تتحركا عن البوابة، ولكن مرت ساعتان دون طائل، قال لي أحمد: صديقي نحن لن نستمر طويلًا هكذا لقد نفذ صبري علينا الرحيل، فلم أستطع مخالفته ورحلت وأنا أجر خيبة عدم العثور عليها ورائي، ولكني قررت أن أداوم البحث عنها كل يوم لن أدعها تفلت من بين يديّ، ذهبت إلى البيت وأنا منهك من التفكير، أخذت غدائي وصليت الظهر ودخلت إلى غرفتي، لا

أعلم ما بي ولكنني أشعر بأنني أصبحت أسيرًا لعينيها منذ أول نظرة، أخذت اليوم كله وأنا أخطط ماذا سأفعل في اليوم التالي لأجلها؟ انقضى اليوم وذهبت إلى النوم وما زالت تلك الابتسامة لا تفارق مخيلتي، أدركني النوم أخيرًا، استيقظت وأمل العثور عليها يتملكني. ركبت الميكروباص ونظرت بتمعن إلى جميع الراكبين ولكنني لم أجدها

***

لقد كان اليوم هو يوم إجازتي من الكلية ولكنني قررت الذهاب، جلست أمام البوابة طوال اليوم ولكنني لم أنل مرادي، قررت الدخول إلى مبنى الكلية ولكنه كان شبه فارغ مع نهاية اليوم الدراسي، صعدت من سلم الفتيات بالخطأ لكنني لم أكن أعلم، كانت إحداهن أمامي ولكنني لاحظت سقوط شيء منها، أخذته ونظرت فيه وكانت المفاجأة التي لم أكن أتوقعها إطلاقًا؛ وجدت كارنيه الكلية الخاص بها وعندما دققت النظر وجدتها هي تلك التي سرقت قلبي منذ يوم، أسرعت بالنداء عليها: مريم مريم، فالتفتت بنظرة استغراب متسائلة: نعم؟! وعندما اقتربت منها قالت: أنت تاني! ولكنني ابتسمت قائلا خلاص همشي بس بكره ابقي اهربي من الأمن بكره وانتي داخله الجامعه، استغربت متسائلةً: تقصد ايه؟ قلت: الكارنيه بتاعك وقع منك وأنا لاقيته،

فتأسفت قائلةً: مش أول مره يقع.،. بس مش هيقع تاني إن شاء الله، وأنا أنظر إليها وهي تتحدث وقلبي يكاد يتوقف من سرعة نبضه، وعيناي متسعتان مركزة النظر على تلك الملامح الملائكية، قالت علينا بالرحيل، ولكنني سألتها: إنتي فرقه كام؟ قالت: الأولى، وشكرتني ورحلت، بالتأكيد فزت بمعلومتين رائعتين، فأنا الآن أعلم اسمها وسنها، رحلت والابتسامه مرسومة على وجهي، وصلت البيت جلست في غرفتي كعادتي وتصفحت الفيس بوك وأخذت بالبحث عن اسم مريم محمود بالإنجليزية تارة وبالعربية تارة أخرى ولكنني لم أجدها، وفي اليوم التالي أنهيت محاضراتي وانتظرت أمام كلية العلوم مرة أخرى، هذه المرة عثرت عليها وأوقفتها وقلت لها: ممكن أتعرف عليكِ .. سكتت برهة وقالت: أنا مبتعرفش علي حد، أنا مهتمة بدراستي بس. قلت لها: أنا مش هشغلك عن دراستك بس حابب أتعرف عليكِ، قالت: آسفة مينفعش، شعرت بخيبة كبيرة وحزن عميق فأنا بدأت تنتابني أحاسيس غريبة تجاهها، أنا لن أستسلم بالطبع..

***

ابتعدت عنها ليومين وفي اليوم الثالث وجدتها تجلس بمفردها في الثالثة عصرًا، والمعروف أن الجامعة في هذا الوقت تكاد تكون خاوية قررت المغامرة وجلست بالقرب منها وقلت لها بتتابع: أنا

لم أكن أعلم أن ثمة يوم سيتحرك قلبي تجاه أنثى، ولكنه تحرك إليكِ مع أول نظرة إلى تلك العيون السوداء الداكنة التي خطفتني أنا وقلبي ووقعنا أسيرين بين يديكِ، وأشعر بالألم لتجاهلك حتى لم تسأليني عن اسمي وإني طارق بابك سيدتي فأجيبي... ضحكت وقالت: لم أسمع طرقك على الباب، شعرت حينها أنها بدأت في قبول الحديث معي، قلت لها: تمام أنا هاعرفك بنفسي؛ أنا يوسف محمد أحمد الرفاعي، طالب بالفرقة الثانية كلية الهندسة قسم مدني. قالت: وأنا أعمل اي؟ نظرت إليها وقلت: واضح إنك مش عايزه تكلميني هنا، ايه رأيك تكلميني على الواتس آب؟ قالت: لا، أنا مبديش أرقامي لحد. تنفرت وكتبت رقمي على ورقة وقلت لها: طيب ده رقمي لو حابه تكلميني فأنا موجود، وهممت بالرحيل وأنا أفكر هل ستحدثني أم ماذا؟! بالطبع الهاتف لا يفارق يدي في انتظار تلك الرسالة في كل يوم، ومرت أيام وأنا أقابلها في الجامعة وشعرت أنها أصبحت تسترق نظرات لي، لقد اكتشفت أنها بدأت تهتم لأمري رويدًا رويدًا، الآن أنا في وضع جيد. أسترق أنا مرة وتسترق هي أخرى وهكذا دارت الأيام؛ قلبها يقترب مني وأنا أركض بكل ما أملك تجاهها. بعد أسبوع متعب وأيام منهكة من التفكير بها جلست مع نفسي متعجبًا من ذلك التغير الذي طرأ عليّ منذ تلك اللحظة التي وقعت فيها عيني على تلك الفتاة.

***

لم أكن أعلم أنه سيتم اغتيالي فجأة لأقع أسيرًا في الحب! وكما يقولون عنه: الحب منذ أول نظرة، هكذا تفننت تلك العيون في إيقاعي في جنان الحب، فتاة في مقتبل العمر، عيون سوداء داكنة، رموش طويلة، وتناسق ملامحها يُضاهي سحر القمر، صوت رقيق، وتأدب في الحوار. ومنذ هذه اللحظة ركض قلبي تجاهها كرضيع وجد أمه بعد أن ضلته شهورًا. بالكاد انتهيت من النظر إليها حتى كان عقلي يشت من التفكير بأنني أجلس بالقرب منها ببضع سنتيمترات، بالفعل أدركني الحب ووقعت في قيوده وقيودها على حد سواء، فاهتمامي بكل تفاصيلها لم يكن الا ليؤشر على جنوني بها، هي لم تقترب بعد ولكن قلبي لن يرى الراحة مرة أخرى إلا بالقرب منها.

الآن أصبحت شخصًا مختلفًا تمامًا عن سابق عهدي؛ فأنا أضحيت مهتمًا بمظهري وتلك التفاصيل الصغيرة التي تثير الجنس الآخر؛ كاهتمامي بشعري وملابسي والعطور الجذابة، كل شيء لا بد أن يكون مكتملًا قبل ذهابي للجامعة، أو بالأحرى لكي أراها ويهدأ قلبي. وفي بداية أسبوع جديد ذهبت للجامعة وجلست مع أصدقائي بعد انتهاء محاضراتنا، نتحدث في مختلف المجالات ونتناقش، وفجأة وجدت هاتفي يهتز، نظرت فيه ولكنه رقم غير

معروف، ابتعدت عنهم وأجبت:
-ألو؟
لم يُجِب المتصل ثم كررتها ولكنه أغلق المكالمة، حاولت أن أحادثه ولكنه أغلق الهاتف. بالتأكيد اهتممت لأمر المتصل فقلبي وعقلي ينتظران بصيص أمل ليتعلقا به، انتهيت من اليوم الدراسي ولكنني ذهبت إلى البيت وأنا في غاية الحزن وكأن يومي ينقصه الكثير فأنا لم أرها اليوم. فتحت هاتفي وحاولت محادثة ذلك الرقم على تطبيق الواتس آب أرسلت إليه:
-مين؟
لم يُجب صاحب الرقم ولكنني انتظرت طويلًا، وفي الثانية عشر ليلًا وصلني الرد:
= أنا آسفة رنيت بالغلط.
- لا ولا يهمك ممكن أعرف مين حضرتك؟
= معلش مش هقدر وبتأسف مرة تانية.
- أنا فضولي جدا وحابب أعرف مين حضرتك مش أكتر وده مش هيسبب شيء.
= ماهو المشكلة في إنك تعرفني.
- طيب طالما أنا أعرفك ممكن أعرف سنك وكليتك مش أكتر بلاش اسمك؟
= طيب أنا ممكن أقولك إن أنا في كلية علوم فرقة أولى.

- مريم محمود عبد الفتاح فرقة أولى كلية العلوم وقررت إنها هتكلمني ومحرجة صح؟

= لا على فكرة أنا رنيت بالغلط.

- آه رنيتي بالغلط وإنتِ بتسجلي رقمي من على الورقة.

= لا أنا بسجله عادي يعني عشان لو احتجت مساعدتك وأنا مليش حد في الكلية ومليش إخوات وكدة.

- ده أنا أساعدك بروحي وإللي تحتاجيه هيكون تحت أمرك في لحظات.

= ههههه مش للدرجادي!

- لا للدرجادي وأكتر ده أنا بقالي عشر أيام مش عارف أنام بسبب عيونك إللي سهروني ليالي دول.

= ههههه أنا بتكسف على فكرة.

- واحدة زيك بالرقة دي لازم تتكثف.

= خلاص بقا وشي احمر.

- خلاص يا ستي لتاخدي في نفسك مقلب ولا حاجة.

= طيب واضح إني هعمل بلوك بسرعة.

- بهزر والله بهزر إلهي لساني يتشل قبل ما أقول كدة.

= لا متقولش على نفسك كدة عشان مش أزعل.

- حاضر يا مانجة إنتِ.

= طب أنا هنام عشان هصحى بدري للكلية.

- طب هشوفك بقا بكرة.

= مش عارفة سيبها للظروف تصبح على خير.

- وإنتِ من أهله.

لربما كانت هذه أسعد دقائق حياتي، انتابتني مشاعر عجيبة، فرح عارم يجتاح قلبي وابتسامة رُسمت على وجهي، قرأت المحادثة عشرات المرات وفي كل مرة أقبّل الهاتف بجنون، أشعر أن الحب قد سرق مني عقلي. لم أستطع النوم في هذه الليلة، كل ما فعلته هو قراءة المحادثة والاستماع لبعض الأغاني الرومانسية، فأنا قد بدأت للتو في إشعال تلك الرومانسية المنطفئة بداخلي. لقد أضاء الحب قلبي، أصبحت مُفعمًا بالأحاسيس ومتشوقًا لبداية أولى خطواتي في الحب بجانب ساحرتي التي أشعلت نيران الحب بداخلي. غلبني النوم في النهاية واستيقظت وأنا ما زلت مبتهجًا منذ الليلة المُنصرفة، تابعت يومي كعادتي ولم أظفر برؤيتها اليوم أيضًا، ولكنني قررت محادثتها وأرسلت لها:

- فينك ماشوفتكيش النهارده؟

= أنا تعبت والله وماقدرتش آجي الجامعة، هتتعوض يوم تاني.

- لا ألف مليون سلامة مالك إيه إللي حصل؟

= صحيت من النوم لقيت عندي برد وجسمي متكسر.

- طب أخدتِ دوا؟

= آه وبدأت أتحسن الحمد لله.

- الحمد لله، إن شاء الله هتخفي بأسرع وقت.

= إن شاء الله.

- أنا حابب أقرب منك وأعرف اهتماماتك، بس في لعبة لذيذة بحبها كل واحد يسأل سؤال والتاني يجاوب إيه رأيك؟

= موافقة.

- طب أنا هسأل الأول.

= اسأل.

- بتحبي ألوان إيه؟

= الموف والأزرق والأسود.

= وإنت إيه أكتر شيء بتهتم بيه في حياتك؟

- والله السؤال ده إجابته ليها شقين؛ قبل ما أشوفك وبعد؛ فأنا قبل ماكنتش بهتم بحاجة غير الكورة تقريبًا وطبعًا التعليم، وبعد ما شوفتك فأنا مبهتمش غير بيكِ.

= هههه طب كويس والله إن في حد بيهتم بيا أوي كدة.

- هو أنا أطول يا مانجة إنتِ!
- بتهتمي بالكورة؟

= آه بشجع الأهلي وبحب برشلونة بردو.

- ياربي يا جدعان أنا أول ما شوفتك قولت إنك شبهي أوي

= ليه؟

- أنا بعشق الاتنين والله.

= طب كويس، وإنت كان ليك علاقات ببنات قبل كدة؟
- والمصحف أول واحدة أكلمها هو إنتِ.

= ههههه بتحلف ليه مصدقاك واضح إنك محترم.
- ربنا يخليكِ بس فعلا أول بنت وإن شاء الله هتبقي الأخيرة.
- وإنتِ كان ليكِ علاقة بولاد قبل كدة؟

= لا مابفكرش في الحاجات دي، وأنا كلمتك عشان ارتحتلك كدة.
- طب كويس، إن شاء الله هتبقي مرتاحة دايمًا.

= حلمك في الحياة؟
- أكون إنسان ناجح وأتجوز واحدة محترمة وقمر كدة وبتشجع الأهلي وبرشلونة.

= ربنا يناولك إللي في بالك.
- عارفة لو حصل هسمي بنتي الاولى مريم على اسم أمها.
- معلش قصدي على اسمك.

= ههههههههههههههههههههه.
- بتحبي أسماء إيه في الولاد؟

= بحب يوسف جدا والله من قبل ما أعرفك و مالك أوي وأحمد.
= وإنت بتحب إيه في البنات؟
- مريم ده أكيد وملك وريهام وآيتن.
- بتفكري في الحب؟

= أنا بخاف منه عشان مايشغلنيش عن التعليم وبخاف يفشل في

الآخر وتبقى عاقبته وحشة.
= وإنت؟

- أكيد نفس الكلام بس أكيد لو لقيت شخص مناسب مش هتردد لحظة في إني أحبه، لإن الأشخاص المناسبين في الزمن ده عُمله نادرة جدًا.

= عندك حق فعلًا.

- القمر مواليد شهر كام؟

=أنا مولودة ٢٠\١٠\١٩٩٣.
لا يوم مميز
= وإنت؟

- أنا ١٩٩١/٧/١

= طب أنا هنام عشان الإرهاق مسكني.

- خلاص ماشي تصبحي على خير.

= وإنت من أهله.

كانت ليلة مختلفة عن باقي ليالي حياتي، لقد أصبحت شخصًا مغايرًا تمامًا، الجميع بدأ يلاحظ كل هذه التغيرات المفاجئة، ولكن لم يكن يشغل بالي إلا هي فقط، كأنها سرقتني من هذا العالم وأخذتني إلى عالمها الخاص حيث أن كل شيء ملك لها.
انعزلت قليلًا عن عائلتي التي تمثل لي كل شيء، فالجميع يتمنى

أن يحظى بعائلة مثالية كتلك التي أحوزها؛ فوالدي دكتور قلب والجميع يشهد بتفوقه في مجاله واحترامه، ووالدتي تعمل مدرسة لغة عربية، ولدي أخ تطيب لي الدنيا عندما أجالسه يدعى حمزة، أما خديجة فهي فاكهة البيت فالجميع يشهد بخفة دمها ولباقتها. أنا أحبهم جميعًا إنهم كل ما أملك، أو ما فزت به في حياتي، فأنا مرتبط بهم ارتباطًا كليًا لأنني لا أحبذ الخروج كثيرًا، وكانت أمي أول من لاحظ تغيري في آخر الأيام؛ كنا جالسين على الغداء وقالت أمي:

- مالك كدة يا يوسف بقالك كام يوم متغير ومهتم بنفسك كدة؟!

= إيه يا ماما بلاش أهتم بنفسي يعني؟

- لا بس مش عوايدك !

وهنا كان لا بد أن تتدخل صغيرتنا اللبقة خديجة:

- يا ماما أكيد ربنا كرمه بواحدة شبهي كدة.

= وأنا يوم ما أشوف واحدة هجيبها بلسانين زيك يا لميضة!

- هههه هو إنت تطول تجيب زي خديجة!

= لا ياماما أنا مستغني.

- بكرة نشوف هتجيبلنا إيه يا أخويا.
- هتشوفي قريب ياختي.

•شوفتي يا ماما مش قولتلك شكله وقع.

- هههههه يابت يخربيتك ابعدي عن دماغي.

= خلاص يا خديجة سيبيه بكره نعرف.

كان حمزة وأبي مكتفيين بسماع الحوار والضحك فقط، لقد احمر وجهي وفضحني حبي لمريم أمامهم، ولكني كنت مستمتعًا بالحديث بشكل خفي عن مريم، وشعرت أنها أصبحت جزءًا من العائلة، وأصبحت متلهفًا لإخبار عائلتي عنها وأنها غيرت حياتي ورؤيتي للحياة، الآن أنا لم أعرف عنها سوى اسمها وبعض المعلومات الفرعية، أود التحدث إليها في كل لحظة. مر يومان وكلانا انشغل في دراسته ولكني قررت أن نتحدث أكثر فبدأت في محادثتها ذات ليلة لنقترب أكثر وأكثر:

- مريومة:

= نعم.

- إزيك عاملة إيه؟

= الحمد لله وإنت عامل إيه؟

- أنا كويس وحبيت أدخل أطمن عليكي ونتكلم شوية.

= وأنا والله فكرت في كدة من شوية.

- طب تمام.
- كنت حابب بقا أعرف اسم مامتك.

= ماما اسمها نجلاء ابراهيم الإدريسي.

- وطبعًا ملكيش إخوات زي ما قولتي.

= آه أنا وحيدة.

- وحابة كدة؟

= أكيد لا كان نفسي يكون ليا أخوات عشان يساعدوني ومبقاش لوحدي بالشكل ده.

- آه فعلًا ده عندي إخواتي قارفني دوشة.

= طب عرفني على العيلة بقا.

- بابا محمد أحمد الرفاعي دكتور، وماما رجاء عبد الحميد الهادي مدرسة لغة عربية، وحمزة في أولى ثانوي، وخديجة إللي مطلعة عيني في تانية إعدادي.

= هِهه مطلعة عينك ليه؟

- لسانها طويل ولميضه جدًا.
- مش سيباني في حالي.

= ربنا يخليهالك أكيد عسولة.

- آه جدا.
- بقالي يومين مابشوفكيش كدة.

= ولا أنا بردو خلاص هشوفك بكرة.

- أنا مش عارف مستحملة نفسك إزاي إنك متشوفينيش كل ده.

= ههههه لا يا ظريف عادي.

- ده أنا هموت وأشوفك حسي بيا يا بنتي.

= هحاول أحس.

- لا والنبي!

= بهزر يا عم بهزر.

- خلاص روحي نامي عشان تصحي تشوفي القمر بالنهار.

= ههههههههههه خلاص إشطا تصبح على خير.

- وإنتِ من أهله.

بعد كل محادثة لا بد أن أنزوي إلى سريري، أتأملها وأتعجب لما فعلته بي تلك الحسناء في ليالي معدودة، وكيف لها أن تسرق قلبي الذي لم يهتز يومًا لأنثي!

ومنذ متى وأنا أستمع للأغاني بهذه الضراوة؟! بالتأكيد إنها لا تشبه البقية، متفردة في كل شيء، قلبها يحتضنني كأنني يتيم الأب والأم، عيناها تختطفني إلى عالم آخر مغاير لما نحن فيه، أما صوتها يكاد يدخل أذني ليصل إلى قلبي مباشرة، لقد تغلغلت بي حتى أدركت أعماق فؤداي، لقد باتت شراييني تضخ كرات الدم البيضاء والحمراء كلاهما منغمسان بحبها. لقد كسرت رهاني مع الحياة على أنني لن أكون صيدًا سهلًا لأحد، حتى اصطادتني عينها في زمن لا يجتاز الثانيتين، إنها نادرة في كل شيء تمامًا كنُدرة اعترافي بسحر النساء حتى قامت هي بسحرى، لا أعلم أي تعويذة سكبتها عليّ تلك الحسناء من سواد عيونها حتى أنحني أمام

جبروت جمالها وسلطان رقتها؟ لقد وقعت أسيرًا لها.
«في هذه الحياة نحن نعيش على الأمل فقط، فكلما انتهى جزء منا تأملنا في باقي الأجزاء، تمر الأيام تباعًا دون أن نشعر أن العمر يسرقنا، تتهاوى أحلامنا في كل ليلة وتكرارها لم يدع مجالًا لأن نكون محبطين، كل شيء يمر لا شيء يتوقف، فقطار العمر لا يرحم أحدًا ولن ينتظرك طويلًا إن لم تقاوم آلام الحياة وتغيراتها فلن تستمر طويلًا في هذا العالم، فأحلامك حق مشروع فاختارها على نفس ذلك المستوى الذي ستجاهد لأجل وصولك إليها، كن قويًا وبالتأكيد ستصل».
كلمات أثرت بداخلي لأنني بالكاد وضعت حلمًا كبيرًا بداخلي وهو أن أفوز بمروضةِ قلبي، هكذا قررت أن أبدأ طريقي في الوصول إليها وهو الأمل والمثابرة لأصل إلى خط النهاية أو بالأحرى إلى أعماق فؤادها.
انقضى يومٌ طويلٌ ولكنه أهم الأيام لأنها تود رؤيتي.
الآن سأنام وأنا أشعر بالتوتر بعض الشيء لأنني لم أقابل مثل هكذا موقف من قبل، وبطبيعتي فأنا خجول جدًا لربما نتحدث وأتلعثم أمامها بالكلام، ولكن لا يهم المهم أنني سأحدثها بأي شكل من الأشكال.

***

«يوسف استيقظ ستتأخر عن الجامعة»،

هكذا أيقظتني أمي بعد أن غلبني النوم لما عانيته من تفكير طوال الليل.
أخذت حمامًا سريعًا وتناولت وجبة الإفطار وهيأت نفسي جيدًا لهذا اليوم التاريخي الذي سيظل راسخًا في عقلي للأبد.
يبدو اليوم مشرقًا والهواء منعشًا، كل شيء مجهز ليوم مُفعم بالرومانسية، أخرجت هاتفي وقررت مهاتفتها لأول مرة، أنه يرن و قلبي انتابته رعشة غريبة!
لقد أجابت:
=ألو.
- صباح الخير يا مريم.

= صباح الخير يا يوسف.
- إنتِ فين كدة؟

= أنا عند كافتيريا كلية علوم.
- طب بصي.

= إيه؟
- أنا جايلك.

= ماشي مستنياك.
- باي.

= باي.
أخذتني قدماي المهتزة إليها وأنا أردد: الزم الهدوء وكن شجاعًا لا

أخطاء ولا تلعثم، الأمر ليس بهذه الصعوبة!

وصلت إليها وقلبي يدق بسرعة جنونية، اقتربت منها وحاولت مراوغة عينيها حتى لا أسقط فيهما مجددًا وتهرب مني كلماتي، قلت لها:

- إزيك؟

= الحمد لله تمام إنت عامل إيه؟

- أنا الحمد لله.

سكتنا برهة ثم قالت:

= طب إيه!

- إيه رأيك نشرب حاجة؟

= تمام إشطا.

- بتحبي القهوة؟

= لا مش أوي.

- خلاص إشطا أنا بحبها نشرب قهوة.

=ههههههههههه ضحكتني يخربيتك، طب أنا هشربها عشانك.

- طب بصي شايفة الشجرة الهادية إللي هناك دي اقعدي على الكرسي إللي تحتها لغاية ما أجيب القهوة.

= مااشي.

ذهبت سريعًا لأجلب القهوة وقلبي يكاد يشق صدرى من الفرح، استعجلت الرجل وقلت له أن يُحسن عمل القهوة، أخذتها

وذهبت حيث جلست:

- قوليلي بقا في حد في الجمال ده مابيشربش قهوة؟

= يعني هو أي حد حلو لازم يشرب قهوة؟!

- آه يابنتي إنتِ مش شيفاني بحبها!

= يا عم بطل لطافة بقا إنت بتحب فيها إيه؟

- عينيها ورقتها وضحكتها وخفة دمها.

= هههههه أقصد القهوة يا أخينا.

- ههههه معلش اندمجت شوية.

- يا بنتي القهوة دي الواحد بيلاقي فيها نفسه كدة، يعني بتحسسني بمود تاني خالص، مثلًا أكون مضايق تفكني، حاجة صعب تفهميها إنتِ.

= ليه معنديش مخ !

- لا مقصدش بس حاولي تشربيها كتير هتفهمي قصدي.

= وليه؟ مش عايزة!

- طب ممكن أسالك سؤال؟

= اسأل.

- إنتِ حلوة كدة لمين؟!

= إيه الإحراج ده بس؟

- ياستي اخلصي خلاص إحنا بقينا أهل هههه.

= والله أنا شبه ماما أكتر.

- آه ابوكي محظوظ بقا.

= هههههههههه يخربيتك إنت فظيع.

- بحب الهزار والضحك.

= آه واضح إنك دمك خفيف أوي.

- ربنا يخليكي يا حبيبتي.

= نعم!

- يا بنتي بقول ربنا يخليكي يا بنتي.

= آه بحسب!

- مالك يا ماما ولو بقول يعني فيها ايه؟!!

= لا فيها تسرع يا خفيف.

- بكره تترجيها.

= هي إيه دي!

- إنك تشربي قهوة دي جميلة والله.

= هههههه إنت مرواغ أوي

- آه فعلًا.

- يعني أنا قعدت أتشيك وسارق الساعه من بابا وحاطط برفيوم غالي ومكلف وماشوفتكيش يعني قولتي فيا كلمة حلوة.

= هههههه يابني كفاية بقا هموت من الضحك.

= لا يا عم إنت مز الصراحة وعلى طول شيك.

- ربنا يخليكِ ده من ذوقك والله.

= طب أنا يادوب ألحق المحاضرة.

- خلاص إشطا خدي بالك من نفسك.

= حاضر باي.

- طب إنتِ مادفعتيش حساب القهوة.

= ههههههههههههه باي يا عسل باي.

- هههه باي.

لقد كانت أسعد لحظات حياتي بلا منازع، كان قلبي يقفز فرحًا، وعيناي مُتسعتان لترتوي من جمال هذه الحسناء، والدم يركض بشراييني وكأنها أضافت جرعات مكثفة منه، لا أعلم ما الذي كان يحدث لي؟ وكأنها اختطفتني إلى الجنة أو ما شابه! فأنا لم أتذوق الفرح هكذا من قبل، في سابق عهدي مع الحياة كنت أشعر أن ابتسامتي وضحكاتي مصطنعة لأنني اليوم شعرت فعليًا كيف تكون الابتسامة حقًا، وتذوقت طعم الضحك الذي يخرج من الأعماق دون سابق إنذار، في هذه اللحظات أدركت حقًا أنني بجانبها سألامس السماء.

***

تمر الأيام والحب ينمو كل ليلة وهي بدورها ترويه دون انقطاع، فكلما أنظر إلى عينيها ينطق قلبي سرًا لي؛ لقد أحببتها لنعترف

لها بذلك، ولكن سرعان ما يردعني عقلي عن فعل ذلك مخافة أُن تردني خائبًا، على الرغم من أنني أشعر انها أحبتني بالفعل، فمن من البشر سيجد من يهتم لأمره كما أهتم أنا لأمرها؟ ومن سيحبها كما أحببتها؟ ومن سيكون عونًا كما أكون لها؟ بالتأكيد أحبتني ولكن عليّ بالصبر فالطريق ما زال طويلًا ولعلها تعترف ذات مرة.

***

كنت في الثامنة عشر وسمعت أحد أصدقائي يوبخني لأنني ضد العلاقات ولست من المؤمنين بالحب، لكنه قال لي: أنت لن تشعر بالحب طالما لم تعشه، «الحب هو الحياة»، الآن أدركت أنني لم أكن على قيد الحياة حتي وِهبتُ إياها في مريم أو في حب مريم، فهنا في كنف مريم وحبها الحياة مغايرة تمامًا، فالابتسامة تخرج من قلبي قبل أن تُرسم على وجهى، والفرح يتراقص بقلبي ليل النهار، نسيت ماذا يعني البؤس، كل شيء له مذاقه الخاص هنا، قرأت كثيرًا عن الحب وكانت إحدي الكتابات الراسخة في ذهني منذ فترة أن الحب شيء مُقدس لن يفوز به إلا من هو قادر على التضحية في سبيله، لربما ضحيت فجأة بأشياء لم أكن أتوقع أنني سأقوم بها في سبيل الوصول إلى حبها، ليس الحب بالسهولة التي كنت أتوقعها ولكن من السهل جدًا أن تكون أسيرًا له، ربما نظرة

واحدة كفيلة بذلك، نعم فأنا مثال على ذلك، فأنا أسير له لأجل عيون مريم، «أنا لم أحب لأجل مريم بل لأجل مريم أحببت»، هكذا كان وصفي للحب الذي غيرت مريم رأيي به.

توالت أيامي مع مريم والعلاقة أصبحت أكثر تعمقًا، وذات ليلة من ليالي إبريل النسيمة رأيت هاتفي يرن نظرت به وكان المتصل مريم، أسرعت بالإجابة ولو كان لقلبي المقدره على أن يخرج ليجيب هو لفعل!

- ألو إزيك يا مريومة؟

= الحمد لله يا يوسف إنت عامل ايه؟

- كويس والله وحشتيني جدًا.

= وإنت كمان.

- مشغولة في إيه كدة بقالك فترة؟

= عندي امتحانات عملي وكدة.

- آه ربنا يعينك.
- طب إيه مش وحشتك القهوة؟

= ههه لا طبعًا وحشتني جدًا.

- خلاص نشرب قهوة مع بعض بكرة.

= تمام أنا عندي سكشن هيخلص الساعة عشرة ونص وهرن عليك.

- تمام.
- أنا بقيت بحب الجامعة عشان أشوفك بس.

= والله الجامعة حلوه فعلًا عشان إنت فيها.

- إوعى بقينا بنعرف نتكلم ونلاغي أهو.

= لا أنا جامدة بس عشان مكنتش واخدة عليك.

- أحبك إنت يا جامد.

= ولد إنت بتقول إيه.

- بقول بحبك فيها إيه يعني مانا بحبك!

= أنا مش عارفة أقول إيه؟

- قولي بحبك ده هم أربع حروف.

= والله هي سهلة كدة!

- آه حتى شوفي بحبك بحبك بحبك بحبك بحبك.

= هههههه خلاص يخربيتك.

- طب بصي هي خبطت بقا في دماغي ومش هنام إلا أما تقولي بحبك.

= يابني صلِ على النبي وروح نام مابتجيش كدة.

- علية الصلاة والسلام، لا هي مابتجيش إلا كدة انشالله تقوليها ب ح ب ك حروف متقطعة كدة.

= إذا كان كدة ماشي.

= ب ح ب ك

- إنت هتهزري إحنا في ابتدائي هم إيه الأربع حروف دول؟

= هههههه يابني ارحمني.

- جمعيهم عشان تنامي عشان الجامعة.

= يا سيدي بحبك بحبك نااااام بقاا.

- يا أحلى بحبك في الدنيا كلهاااا وأنا مش بحبك.

= إنت هتهزر يلا!

- أنا بعشقك والله.

= هههه آه بحسب، يلا بقا نام.

- تصبحي على خير يا أحلى إنسانة في الكون ده كله.

= وإنت من أهله يا جميل إنت.

لا داعي لتوضيح شعورى الآن، فأنا على أبواب الجنون، لقد نطقت ما ظننته مستحيلًا يومًا، لقد سمعت أذنُاي ما لم تسمعه قط، لقد وصل لقبلي ذلك الخبر وذلك النطق وتلك الكيفية التي نطقت بها الكلمة، لقد أخذ كل تفاصيل هذا الحدث وظل يرقص نبضًا سريعًا مبتهجًا بذلك العُرس الذي انتظرته طويلًا، ها قد نُلنا مُرادنا يا قلبي وأدركنا أول الطريق؛ لنسرع لأن نجعل حُلمنا حقيقة ولتكون هذه الحسناء الرقيقة هنا في أحضاننا لا تفارقنا ولا نفارقها، نعتني بها وتمدنًا بالحب والحياة، نصونها ونحميها، أيًا كان المقترب سنردعه؛ فجوهرتنا لن يمسها غريب من اليوم.

الصباح هذا اليوم لا يشبه أي صباح، إنه صباح مريم وحبها. استيقظت بعد حلم غازلني طوال الليل بالطبع كانت مريم بطلته، وما حياتي إلا مريم كل ما يحدث فيها إلا وكانت هي المُتسيدة للحدث، حلم طويل وممتع ولكني سأتأخر على أن أجعله حقيقة، فالساعة قد وصلت العاشرة وأنا لم أجهز بعد فمريم ستكون بانتظاري بعد نص ساعة.

- أنا مش فاهمة يا محمد يوسف بقاله فترة متغير ومابيقعدش معانا ليه!

= يا ستي تلاقيه مشغول في الدراسة ولا حاجة!

- لا ده ابني وأنا فهماه أكيد بيحب واحدة شاغلة دماغه.

= سيبيه يحب يا رجاء هو صغير ده طالب جامعي دلوقتي.

- ماشي يحب بس ياخد باله من تعليمه ويقعد معانا، ده مش بيقعد معانا إلا عشان الأكل إيه للدرجادي البنت حلوة؟!

= ههههه بكرة نعرف.

أسرعت في أن أكون جاهزًا، وجدت أبي وأمي يتناولان الإفطار وقلت لهم إنني متأخر وسأسرع، ولكن أمي على غير عادتها

طلبت مني أن أهتم أكثر بالتعليم، وأن أجالسهم أكثر بدل انعزالي الدائم في غرفتي، ضحكت لها ووافقتها مطالبها وأسرعت للرحيل إلى الجامعة.

لا أشعر بأهمية الأيام إلا وأنا بجانبها، فقط عندما تتقلص المسافات بيننا أُدرك لماذا أنا على قيد الحياة، ففي كل مرة أقترب منها وأشعر بدفء مجلسها ورقة حديثها وتلقائية أفعالها أكون أكثر امتنانًا لذلك اليوم الذي ولدتُ فيه.

ها قد وصلت إلى مكان اجتماعنا المعروف -تحت تلك الشجرة الهادئة، وأحمل فنجانين من القهوة وهي جالسة مبتسمة كالملائكة تمامًا.

= إيه يا باشمهندس اتأخرت ليه؟!

- معلش يا عيون الباشمهندس، الكافتريا كانت زحمة شوية.

= خلاص يا سيدي سماح المرادي.

- أحبك إنت يا مُسامح.

= وأنا كمان.

- وإنتِ كمان بتحبيني؟

= لا شايفاك مسامح يعني.

- بطلي حوارات إيه مكسوفة تعترفي إنك بتحبيني! مانا عارف إنك بتحبيني ولسه قايلالي إمبارح من ثم واحد زيي لا

يُقاوم ولازم يتحب!

= ياد بطل غرور بقا وبعدين ماهو بقا باين أوي إني وقعت فيك.

- أيوه كدة خليكِ عسل وقوليها.

= طب أنا بحبك.

هنا انفلتت أعصابي وسقطت القهوة على ثيابي، كأن زلزالًا ضربني أو بركانًا انفجر بجانبي، نظرت إليها وعيناي لا يُصدقان ماذا رأوا، وأذنُاي لم يُدركا بعد ما قد انسل إليهما، قلبي يرتجف انبساطًا، وعقلي قد صور ما حدث كليًا وما زال يُعيده اغتباطًا بهذا الحدث، قالتها فجأة وأنا لم أكن أعلم أنها ستنطقها بهذه السهولة واليُسر على مرمى ومسمع مني! لقد تمسمرتُ في مكاني وتكاد عيناي لم تسقطا من عليها، فرأيتها تضحك متعجبة طارحة سؤالًا:

= إيه إللي حصل ده مالك؟

- مالي إيه بس إنتِ خليتِ فيها مالي ده أنا أعصابي سابت!

= خلاص مش هقولها تاني.

- لا لا لا ده إنتِ تقوليها تاني وتالت ورابع إلى ما لا نهاية.

= هههههههه حاضر يا سيدي من عيوني.

- تسلملي عيونك إنتِ.

= بس إنت بهدلت نفسك خالص، أنا معايا مناديل قرب أنضفلك القميص.

- حاضر، و هنا حدث ما زاد البلة طين؛ اقتربت مني ونظرت

في عينيها عن قُرب ولكني ما كنت أشعره من بعيد صدقتُ عليه عندما اقتربت؛ إن عينيها لعالم آخر يتوه بداخله البشر وينسحر الناظر بهم لا محالة. إن عينيها قد تُشعل حروبًا وتُقيم فتنًا وتثير ثوراتٍ، هنا قد قاربتُ على أن أتغيب عن الوعي لما يحدث لي تباعًا، وما إن انتهيت من سحر عينيها، إلا وقد لامست يداي يداها وهنا انتابتني رعشة من فرط الفرح. انتهت من تنظيف قميصي وأنا أنظر إليها وكأنها أول طفل لعقيمين وصلا الخمسين وظنا أن أملهما في الإنجاب قد اندثر فحدثت المعجزة؛ فأنا بالفعل أرى مريم أشبه بمعجزة قد فُزتُ بها.

= أظن كدة بقت نضيفة شوية والبقعة مش باينة أوي!

- طبعًا، مش إيدك هي إللي نضفتها لازم تدوب وتروح زي مأنا دوبت دلوقتي.

= طب حاسب بقا لتروح هههههه.

- مأنا خايف أروح مرة في بصة من بصاتك دي.

= لا امسك نفسك أمال!

= إلا بقولك يا يوسف إنت عامل إيه في الكلية؟

- والله أنا بدأت أتوه بقالي فترة.

= آه تلاقيك من ساعة ما عرفتني وأنا كدة هحس إني بضرك وهزعل.

- لا والله أنا فعلا هبدأ أهتم علشان الفاينال قرب.

= ياريت يكون أفعال مش كلام بس وأنا هتابعك من هنا ورايح.
- حاضر يا قلبي ده أنا عشانك أجيب امتياز.

= طب اسكت لأمسك في الكلمة وأطلب تجيب امتياز.
- هههههه لا خلاص خلاص.
- فاضل كام يوم علي امتحاناتك؟

= عشرين يوم تقريبًا.
- معايا بردو.
- ربنا يسهل ونخلص على خير.

= إن شاء الله.

فجأة وجدت هاتفي يهتز أخرجته فإذا به أحمد صديقي فأجبته.

= إيه ياعم يوسف إنت نسيتنا بقا ولا إيه مش بشوفك يابني بقالي فترة؟!
- مشغول والله مش أكتر إنت فين كدة؟

= كنت في سكشن ومروح.
- طب أنا شوية وهعدي عليك نقعد مع بعض شوية في الكافيه.

= خلاص إشطا مستنيك بس مش تتأخر.
- ماشي سلام.

= سلام.

أنا أعلم أني قصرتُ في حق الجميع ولكن كل هذا في سبيل مريم

فقط ضحيت لأجلها ليس إلا، وهنا سألتني مريم:

= مين ده؟

- ده أحمد صاحبي وصديق عمرى بيسأل عليا عشان مابقعدش معاه من فترة وكدة.

= وإيه إللي شاغلك عنه؟

- مفيش ده هي حتة بنت واخدة ال ١٦ ساعة تفكير وال ٨ الباقيين أحلام.

= يااااه للدرجادي!

- آه دي سرقتني أنا ودماغي وقلبي والليلة كلها.

= ممكن تكون إنت بردو واخد دماغها وقلبها، مش ممكن؟

- ممكن!

= طيب يعني مش إنت لوحدك إللي مشغول.

- آه واضح إن في حد تاني طلع مشغول.

= طب يلا علشان الدنيا فضيت في الجامعة واتأخرت.

- يلا وأنا هروح أقعد مع أحمد.

= تمام.

- هتحتاجي مني حاجة؟

= لا ربنا يخليك.

- خدي بالك من نفسك.

= حاضر.

- باي.

= باي.

انتهت أحد أكثر دقائقي الدراماتيكية التي لربما لم أرها إلا في الأفلام، تنفست الصعداء بعد أن شعرت أنني مقيد وأنا أمامها؛ فقد شعرت بثقلٍ في كلماتي، ورعشة تنتاب يدي، وعقلي يركض في التفكير عما سأفعل وأنا بجانبها، وقلبي الذي لم يهدأ ولو لبُرهة. أنا الآن في طريقي لصديقي وعقلي ما زال يُعيد كل لحظة حدثت معها وكل فِعل قامت به، فهو لم يصدق بعد أن هذا قد جرى بالفعل، لقد توقف عن مراجعة الأحداث لأنني قد وصلت للتو إلى منزل صديقي أحمد.

= حمد الله على السلامة يا هندسة واحشني جدًا.

- وإنت كمان والله.

= قولي بقا وبكل صراحة إيه إللي شاغلك بالطريقة دي عني؟

- فاكر يوم ما فطرنا واستنينا البنت قدام علوم ومشينا من غير ما نلاقيها؟

= آه فاكر.

- أهو أنا بقا مانمتش إلا لما وصلتلها وفضلت لغاية ما كلمتها واكتشفت إنها سرقتني من الكوكب ده وخدتني على كوكبها.

= أيوة مفيش حاجة هتسحبك مني غير الحب أنا عارفه ومجربه

بس إنت عشان في الأول.

- لا يا عم أنا من أول ما شفتها وأنا مسحور بيها حاجة مش طبيعية كدة، يعني نايم واكل شارب مذاكر كل حاجة وأنا بفكر فيها.

= ياه ده إنت وقعت جامد بقا.

- أيوه هو إنت بتشوفني؛ أنا يا إما بكلمها على الموبايل، يا إما بقابلها في الجامعة، يا أما قاعد بفكر فيها، بص مبقتش حياتي القديمة دي بقت مريم وبس.

= لا ده إنت حالتك صعبة أوي! ربنا يسهل ولو إني خايف من الحب أصله مش مضمون وكله مشاكل ولما بيفشل بيدمر حياة الانسان.

- لا متخافش أنا من ناحيتي هضحي بكل حاجة في سبيل إن حبنا يكمل، وهي ملاك يعني عمرها ما هتبعد أو تقرر تجرحني في يوم يعني إن شاء الله علاقة مكتملة.

= إن شاء الله.

= المهم الولاد سألوني عنك كتير وإنك مابتنزلش تقعد معانا في الكافيه.

- حاضر في أقرب وقت نبقا نقعد مع بعض بس إنت شايف إننا هندخل على الامتحانات قريب وكدة، سيبها لبعد الامتحانات بقا.

= خلاص تمام.

- بقولك أنا همشي علشان ورايا مذاكرة كتير أوي.

= ماشي أشوفك في الجامعة بقا.

- ماشي سلام.

= سلام.

لقد أربكني أحمد وأدخل الشك إلى قلبي عندما ذكرني بمخاوفي من الحب وسقطاته المُبرحة وآلامه المريرة، لقد جعلني أحمد نادمًا على ذهابي له، شعرتُ أنه قد أطفأ تلك الفرحة التي أشعلتها مريم في الصباح، وهدأ من أحلامي التي لامست السحاب وأنا ذاهب له، لقد جعلني أفكر في الأمر برُمته مجددًا، عقلي تشتت وتحسر من التفكير في سوء منقلب قد يحدث لي، ولذلك الحب الذي بدأ يخطو أولى خطواته ولكن سُرعان ما أنهى قلبي تلك المخاوف عندما برهن على حب مريم وعلى ثباتها وعدم تغيرها مهما حدث فلا هذا من شيم الملائكة، انتهت مخاوفي وضربتُ بشكوكي عرض الحائط، أنا مستمر في حب مريم ولو كلفني ذلك روحي.

دائمًا ما يكون صراع القلب والعقل من أشد الصراعات شراسة، ودائمًا ما تخرج من هذا الصراع فاقدًا أحدهما بالتأكيد؛ فكلاهما

لا يتوافقا رأيًا واحدًا، فأحدهما لا يود سوى السلام والطمأنينة، والآخر يبحث عن مشاعره وعواطفه مهما كلف الأمر، العقل لن يُغامر بطريق محفوف بالمخاطر وتملؤه العثرات، أما القلب فهو أعمى وأبكم لا يمتلك إلا الإحساس وهو على درجة عالية منه، تقوده أحاسيسه ومشاعره وإن تعثر سينهض ويحاول فهو مُضحٍ من الدرجة الأولى، لذا فإن التضاد الذي يقوم بينهما يُشعل حربًا مُلتهبة وفي أغلب الأحوال يخرج القلب فائزًا فيها فهو يمتلك الحظ الأوفر من القرارات ودائمًا ما تميل الكفة إليه، ولكن ذلك المُنهزم لربما يكون هو الفائز في باطن الأمر عندما يجر القلب خيبته عائدًا له معتذرًا عن خوضه دروبًا هو ليس أهلًا لها وليست آمنة لكليهما، فهنا تظهر حكمة العقل الذي ينظر فقط للسلام وتجنب المخاطر فنصح العقل دائمًا ما تؤول صحته في النهاية، لذا فإنه صراع ينشأ بينهما وأحدهما يخرج مطأطئ الرأس مغلوبًا على أمره.

***

انقضت الأيام سريعًا واهتم كلانا بالدراسة في هذه الفترة الحساسة التي تعجُ بالامتحانات التي دقت أبوابنا، فأول امتحان لي ولها في نفس اليوم بعد ثماني وأربعين ساعة، أنا انتهيت من المذاكرة ولم يتبق إلا القليل سأحاول الانتهاء منه في الغد ولكني قلق جدا على

مريم؛ لذا قررت مهاتفتها لأطمن عليها.

- مساء الخير يا حبيبتي.

= مساء الخير يا حبيبي.

- ها خلصتي مذاكرتك ولا إيه؟

= لا والله لسه مادة رخمة وطويلة أوي.

- ياه إنتِ محتاجة مساعدتي بقا.

= هههه ياعم خليك في همك إنت بس، قولي بقا إنت عملت إيه؟

- أنا يا حبيبتي مجتهد فاضلي فصل واحد هراجع عليه لبكره وخلاص.

= إللي خلاك تخلص يخلينا يا عم.

- إن شاء الله هتخلصي ويبقا كله تمام.

= يارب يسمع من بؤك ربنا يارب.

- طب أسيبك تكملي أنا قولت أرن أطمن عليكِ.

= والله المكالمة دي مهمة جدا وهتحمسني أخلص.

- طب بقولك بقا خدي جرعة حماس مشتعلة بحبك يا أحلى مريم في الكون ده كله.

= وأنا بحبك يا أرق وأحن يوسف شافته عيوني، ده جرعة حماس وفتح بيت المقدس كمان هههه.

- هههههه طب كويس خدي جرعتك وركزي في المذاكرة.

= حاضر يا حبيبي.

- باي يا عيوني.

= باي يا قلبي إنت.

لم أكن أتوقع في بدايتنا أن العلاقة ستصل إلى هذا الهوس المتبادل بيننا، أصبحنا نتشوق لأن نتحدث، ونتمنى أن تنقضي تلك الأيام التي تُبعدنا عن بعضنا الآخر، لقد وصلنا سويًا إلى المعنى الفعلي والحقيقي للحب؛ والذي يتمثل في خوف كلينا على الآخر وكأنه جزء لا يتجزأ من الآخر، متشابكان لا يستطيع أي شيء في هذا العالم أن يفض تشابكنا وترابطنا؛ لأنه يصبح من المستحيل أن تفك ترابط القلوب وتشابك الأرواح، فعندما يتعلق الأمر بالروح فلا يوجد غير الله القادر على أن يفرق بين الروحين، هكذا تطورت علاقتنا وإلى ذلك الحد أصبحنا، عشاقًا مُتيمون ....

الأيام تركض بسرعة جنونية وأنا بجانبها، وكأن الأيام لا تود أن تتركني أستمتع بتلك اللحظات التي تكون مريم بجانبي فيها. انتهت سريعًا امتحاناتنا، وانقضى العام الدراسي وأصبحت رؤية مريم ليست بالأمر السهل كما كانت العادة بالجامعة، الآن من الصعب أن تخرج مريم من البيت، فهي وحيدة، ووالداها يخافان عليها كثيرًا، لذا فإن خروجها في الإجازة سيكون أمرًا صعبًا، ولكنها

ستفعل ذلك كما وعدتني، فلا أنا ولا هي قد يطيق أحدنا ألا يري الآخر يوميًا تقريبًا، فهي قالت لي بأنها ستراوض أبويها لتخرج وتراني، وأنا سأحاول مرارًا مساعدتها في تحقيق ذلك.

وفي إحدى الليالي بعد منتصف الليل جاءت مكالمة اسم صاحبها» دُنيتي» مريم ترن عليّ.

= حبيبي إللي وحشني أوي.

- نور عيني ودنيتي وحياتي إللي على طول وحشاني.

= كنت بتعمل إيه يا قلبي؟ كنت قاعد مع حمزة وخديجة بنضحك ونتكلم شوية.

= طب أنا محضرالك مفاجأة ممكن تفرحك.

- طب قولي بسرعة.

= أنا نجحت بتقدير عام جيد جدًا.

- يالهوي على القمر بتاعي وشطارته وتفوقه، ألف مليون مبروك يا حياتي وعقبال التخرج وفرحنا بقا إن شاء الله.

= الله يبارك فيك يا حبيبي، وإن شاء الله هيبقى أحلي فرح علشان هيكون فيه أجمل وأحن وأرق عريس في الكوكب ده.

- ده هيبقى علشان إنتِ يا موزتي إللي هتبقي فيه.
- طب بقا مش هنتعزم بقا على النجاح ده؟

= بس كدة ياروحي ده أنا هعزمك على بيتزا إيه رأيك؟

- خلاص لما تفضي بكرة رني عليا وتعزميني على بيتزا.

= خلاص هرن عليك بكرة الساعة خمسة.

- إشطا هستناكِ.
- والله أنا فعلا هروح أنام وأنا مبسوط أوي من المفاجأة الجميلة دي.

= ربنا يخليك ليا يا روحي.

- ويخليكِ يا قلبي، روحي نامي بقا عشان تجهزي للعزومة.

= هههههه حاضر تصبح على خير يا سوفي.

- وأنتِ من أهله يا مريومتي.

ما هذه الفرحة الجنونية! وكأن هذا النجاح كان لي وليس لها، في هذه اللحظة أدركت مدي حبي لمريم وأنه قد فاق حدود الإعجاب حتى وصل إلى حد العشق؛ فليس من الطبيعي أن يغتبط أحدهم فرحًا بهذه الطريقة لنجاح شخص آخر، أو لربما أصبحت جزءًا مني، وما زاد فرحي أنني سأراها غدًا وأنا لم أرها منذ أيام، سأفوز بإحدى تلك النظرات الساحرة مجددًا.

***

= صباح الخير يا باشمهندس.

- صباح الخير يا ماما.

= إيه ياعم يوسف ماوحشتكش قعدتي!

- لا طبعًا يا ست الكل ده الدنيا كلها ليكِ.

= مبقاش واضح، واضح إنها بقت لحد تاني!

- هههههه لا طبعًا مفيش بعدك إنتِ.

= طب مفيش أخبار عن نتيجتك ولا إيه؟

- والله يا ماما بيقولوا آخر الأسبوع لسة مش متأكد، إنتِ مستعجلة على إيه ما براحتهم؟!

= عايزة أشوف الدلع إللي كنت فيه وصلك لفين.

- لا ماتقلقيش أنا واثق من النجاح.

= ماشي يا عم الواثق خش هتلاقي الفطار في المطبخ.

- ماشي يا ست الكل.

ذهبت لتناول الإفطار وأنا أفكر في ذلك الحديث المُنقضي وأنها بدأت تشعر أن مريم قد سرقتني منهم جميعًا ومنها هي بالتحديد، في الواقع إن جميع من هم بحياتي شعروا فجأة أنني تغيرت عليهم، وكان ذلك بسبب مريم التي أخذت كل وقتي تفكيرًا وأحاديثًا حتى في النوم قد فازت به أحلامًا، انتهيت من تناول الإفطار وجلست مع أخواتي نتحدث سويًا، وفي وسط حديثنا قالت خديجة:

= يا يوسف مش هتقولنا اسمها ولا إيه؟!

- اسم مين يا لطيفة؟!

= إللي سرقاك مننا دي يا أخويا.

- ملكيش دعوة مش هقولك.

= بكرة نعرف أو تعرفنا، هتروح فين يعني؟

ضحكت أنا وحمزة لذلك الرد الذي جعلني مبتهجًا لأن عائلتي أصبحت تود التعرف على مريم التي أسقطتني في حبها وخلفتني عنهم، أخذنا الحديث طويلًا حتى أذن العصر وقررت أن أذهب لأصليه في المسجد، حتى صلاتي لابد وأن تتخللها مريم في دعائي بكل سجده، هكذا أحب قلبي أن يترجاها من الله أن تكون من نصيبه، حسنًا إنها الرابعة والنصف عليّ أن أتجهز، لم يتبق إلا نصف ساعة على ميعادي مع مريم، وما إن انتهيت حتى وجدت هاتفي يرن؛ أجبتُ:

- لا بصراحة دايمًا مواعيدك مظبوطة!

= آه أنا بحب جدا الالتزام في كل حاجة.

- طب أنا نازل من البيت.

= تمام وأنا كمان، أنا هستناك في المطعم اللي جنب الجامعة ده بيعمل بيتزا حلوة.

- آه إللي قدام بوابة طب؟

= آه

- خلاص وأنا نص ساعة وأكون هناك.

= ماشي.

كانت أشكال الفرح تتلون كل يوم بلون جديد، بدأت أشعر بأنني فزتُ بهبة من الله وكأنها فرحة دائمة لي وكأن الحياة برمتها تم اختذالها في مريم! أنا أشكر الله على تلك النعمة التي لن أفرط بها مهما حدث ومهما كلفني ذلك.
وصلت إلى ذلك المطعم وكانت هي بانتظاري جالسة بهدوئها المعتاد وبابتسامتها الحنونة وبعينيها المتسعتين، جلست بجانبها وفي هدوء تام قلت لها:

- بحبك قبل أي كلمة كدة.

= هههه وأنا بحبك أوي.

- مبروك النجاح يا نور عيني وعقبال فرحنا بقا.

= الله يبارك فيك يا قلبي وإن شاء الله قريب.

- ها هتأكلينا إيه بقا؟

= أنا بحب مارجريتا.

- خلاص هاتيلي زيك.

= تمام بعد إذنك ممكن اتنين مارجريتا؟

- طبعا ماما وبابا مبسوطين.

= آه جداا.

- معقولة لغاية دلوقتي معرفتش باباكِ ومامتك شغالين إيه؟

= وإحنا فاضيين للأسئلة دي هههه مانت شايف!

- هههههه على رأيك بس من باب العلم.

= يا سيدي بابا مهندس مدني زي حضرتك إيه رأيك بقا؟

- طب كويس كدة هيحبني هههه.

= وماما مهندسة كهربا بس بابا غيور ومش بيشغلها.

- آه ما ماما جايبة قمر فأكيد هي كمان قمر ولازم يغير عليها.

= ههههههه آه فعلا هي أحلى مني.

- ومفكروش يجيبولك إخوات يعني؟

= أهو بقا النصيب وربنا رايد إني أكون وحيدة.

- ياستي بكره نتجوز ونجيب عشرين عيل وماتحسيش بالوحدة ثم أنا بقيت في حياتك هتحسي بالوحدة إزاي بقا؟

= لا بصراحة إنت مليت عليا حياتي وملتني حب وكل حاجة.

- البيتزا وصلت أهو.

= طب يلا كل علشان متبردش.

- طب بصي أول حتة هأكلهالك عشان أنا مش هدوقها قبلك.

= ههههه ماشي.

- يلا افتحي بؤك الجميل ده.

= يلا.

- إيه طعمها حلو؟

= طبعًا مش من إيدك حتى لو وحشة هتبقى حلوة من إيدك.
• أحرجتيني يا مريومتي.
= طب يلا كل بقا.
• ماشي.

كنت في ذلك الوقت أنظر إليها وأتمعنها جيدًا، فملامحها وهي تأكل تُشعرني وكأنها قطة صغيرة تتناول طعامها، كنت أود احتضانها وهي بالقرب ولكني امتنعت بالطبع عن فعل ذلك، وبعد أن انتهينا من الطعام شعرت بالضيق لأننا سنفترق مجددًا، دائمًا ما أشعر أنني أريدها بجانبي إلى الأبد، تمامًا كرضيع لا يفارق أمه وإن فارقته بكى وحزن لذلك، ولكن أحاول أن أهدئ من غضبي بأنها ستصبح بجانبي للأبد عما قريب، وهنا جاء أحد العاملين بالمطعم ووضع الشيك أمامنا فوجدتها تحاول إخراج الأمول لتحاسب على الطعام ولكنها وجدتني أنظر اليها بطريقة مخيفة فتعجبت وقالت:

= إيه يا حبيبي بتبص كدة ليه؟؟
• إنتي بتعملي إيه كدة يا عنيا؟!
= هحاسب مش أنا عزماك!
• إنتِ عزماني إني أشوفك ودي عزومتك ووصلت إنما إنك تحاسبي على الأكل فده مستحيل يحصل طول مأنا موجود، فيلا دخلي فلوسك عشان الوش التاني بتاعي وحش وأنا بصراحة مش

عاوز تشوفيه خالص.

= لا لا وعلى إيه مش عايزة أشوفه اتفضل حاسب، آه تمام.

- كام الحساب يا فندم؟
- ١٥٠ جنية
- طب حاسبي يا مريم وتعالي ورايا.

= هههههههههههههههههههههه.

- لا بهزر طبعًا اتفضل حسابك.

= يخربيتك فصلتني ضحك قدام الراجل.

- هههه بهزر يا روحي بحب روح الدعابة.

= ده إنت على طول كدة.

- أيوه أصلنا هناخد من الدنيا إيه غير شوية الضحك والكام بصة بتوعك دول؟

= هتاخدني معاك للآخرة.

- آه طبعا هو أنا لو مت مش هسيبك لوحدك طبعا هاخدك معايا.

= هههههه بعد الشر عليك يا حبيبي.

- طب يلا روحي إنتِ عشان مش تتأخري عليهم في البيت.

= ماشي باي.

- باي.

مَن أسعد مني على وجه هذه الأرض الآن؟ أنا الان على قمة السعادة ومنتشي تمامًا بما يحدث لي، ولا أصدق أن ما أعيشه واقعًا وليس دربًا من دروب الخيال، لقد سارت الأمور سريعًا وأصبح تفكيري في حبها لأن يصبح تفكيرًا في الزواج منها وبأسرع الطرق الممكنة؛ لأن حياتي أصبحت الآن ملكًا لها، وسعادتي مرهونة بها، وأنني بدأت أشعر أنها تبادلني نفس المشاعر والأحاسيس، كلانا الآن مُنغمر في حب الآخر، غارق في تفاصيله، فنحن أصبحنا نصفين لجسد واحد لا يسع لنصف أن يعيش بدون الآخر فبكلينا تستمر الحياة، وبابتعادنا تنتهي وتندثر، أدركت حقًا أن الحب يساوي حياة أو بمعني أدق يُحيي من ظنوا أن قطار الحياة قد فاتهم وأنه لا مهرب من قبوعهم في القاع منتظرين انقباض أنفاسهم، فأنا أحد الفارين من القاع وأن القطار الحياة -قطار مريم- لم يفتني وقد أنقذتني من القاع إلى حيث الحياة.

***

كنت غارقًا في نومي وإذا بصديقي أحمد يوقظني من النوم فأجبته:

= يوسف النتيجة ظهرت أدخل شوفها.

- ماشي سلام.

= سلام.

لقد فزعت من النوم والخوف قد تسلل إلى قلبي، لأني لا أريد أن أجعل أبي وأمي حزينين أو أسقط من عين مريم كمقصر في واجبي التعليمي، تصفحت موقع الكلية ويدي ترتجف، ومن ثم أدخلت بياناتي وظهرت أمامي النتيجة، نظرت بها جيدًا وجدت نفسي ناجحًا بتقدير عام جيد جدًا، فصرخت صرخة تعبر عن كمية الضغط الذي كنت أعيشه بسبب النتيجة فركض حمزة وقال لي:

= إيه يابني في إيه؟؟

- أنا نجحت، نجحت يا حمزة.

= مبروك يا هندسة، يا ماما اجري يوسف نجح.

- بجد يا يوسف مبروك يا حبيبي وعقبال التخرج كدة.
- الله يبارك فيكِ ياماما إن شاء الله.

بالطبع هكذا خبر لابد وأن يصل إلى مريم في أسرع وقت ممكن، وهنا دخلت غرفتي وهاتفتها

- ألو مريومتي معايا؟

= أيوة يا عيون مريومتي.

- بقولك إيه.

= إيه؟

- موضوع النجاح ده طلع سهل أوي.

= ههه ليه يعني؟

• مفيش يا ستي أصلهم خايفين على نتيجتي في البيت.
= وأنا كمان والله خايفة جدًا.
• إشمعنا أنا مش خايف؟!!
= إزاي يعني مش خايف؟
• عشان أنا جبتها ونجحت.
= إيه ده إنت بتهزر!
• آه والله لسة جايبها ونجحت بتقدير جيد جدًا.
= لوي لوي لوي مبرووووك يا قلبي إنت مبروك يا عيوني من جوة.
• هههه الله يبارك فيكي يا كل حياتي.
= بس أنا كدة هرد العزومة،بس أنا مش فاضية غير آخر الأسبوع عشان بنغير كام حاجة في البيت وشغالة فيه.
• خلاص إشطا يبقا كده هنرد العزومة آخر الأسبوع بس في مطعم تاني أنا هبقى أختاره.
= ماشي يا حبيبي، أنا مبسوطة أوي أوي يعني.
• ربنا يقدرني وأفضل أفرحك كده دايمًا يا حبي.
• أنا هروح أشوف بابا عشان جه من الشغل ولازم أفرحه.
= ماشي يا حبيبي.
• باي يا مريومتي.
= باي يا عيون مريومتك.

أنا لا أستطيع أن أصف شعوري عندما قبلني أبي وأحتضنني قائلًا «عقبال التخرج والعروسة مع بعض بقا وده وعد مني يا باشمهندس»، بالطبع لم يدُر في رأسي إلا مريم فقلت له: «وأنا بقولك العروسة جاهزة والتخرج فاضل عليه سنتين»، ضحك أبي واعدًا إياي بأنه سيفعل لي ما أريده بعد التخرج.

***

إن تذوق النجاح هو أكبر ملذات هذه الحياة، فهو يتوج مساعينا وركضنا الدائم تجاه أحلامنا، ربما تحقيقه ولو لمرة واحدة كفيل بأن يضخ قلوبنا بالعزيمة والإصرار، فمهما سقطنا في محاولتنا للوصول إليه، فنحن نحاول مرارًا وتكرارًا أن نصل إليه، وبالتأكيد سيأتي اليوم الذي نتباهى به بأنه ورغم العوائق والعقبات وصلنا إلى خط النهاية حيث النجاح وحيث الراحة بعد عناء الطريق.
اليوم أنا في غاية الانبساط، أشعر وأنني قُدر لي أن أفوز بكل شئ تباعًا، عائلة مثالية، نجاح مُبهر في حياتي التعليمية، امتلاك لأنثى بإمكانها أن تلتهم حزني بابتسامة واحدة منها، من في هذه الحياة يعيش ما أعيشه؟ أحيانًا أشعر بأني مكتمل لا ينقصني شيء، لا أريد أن أحسد نفسي على هذه النعم ربما شعرتُ بأنني مدين إلى الله بكثير من الأشياء وأول شيء فأنا ذاهب إلى صلاة ركعتي شكر على هذه النعم التي منَ الله عليّ بها، ومن ثم سأقصد

بيتًا من المساكين وأتصدق عليهم، فأنا مُجبر على التصدق حيث وهبني الله ما لم يهبه للكثير، فالحمد والشكر لمن وهب ..
مر هذا اليوم وأنا لا أريده أن يمر هكذا فربما لن يأتي مرة أخرى ودعته والحزن مسكوب على وجهي، انتهى كعادة الأيام؛ لا تنتظر أحدًا تتوالى سريعًا تمامًا كما وصفها كاتبنا الجليل الدكتور أحمد خالد توفيق: «الأيام تتسابق كأعمدة النور التي تراها من نافذة القطار»، من المؤسف أن أستقبله بذلك الفيضان من الفرح وأودعه بهذا الحزن المُزعج، انقضى اليوم وسرقني النوم من فرحتي العارمة.

***

انغمست في النوم طويلًا ولم أستيقظ إلا على أذان العصر، وجدت هاتفي بجانبي ومكالمة لم أجب عليها من مريم، حاولت مهاتفتها ولكن وجدت هاتفها مغلقًا، انتابني القلق نوعًا ما، وهنا دخلت أمي عليّ:

= صحي النوم يا باشمهندس.

- مش عارف يا ماما نمت كتير أوي.

= أكيد من الفرح والراحة النفسية بعد النجاح.

- آه ممكن!

= عيد ميلادك الأسبوع الجاي وباباك حاجز شاليه في العين السخنة

عشان نحتفل بيه هناك وكمان نصيف.

- بجد والله!! أنا كنت ناسي عيد ميلادي كتر خيركو والله إنكو فاكرينه.

= طب قوم بقا غسل وفوق كدة عشان تفطر، وصحيح أحمد عدى عليك بس أنا مرضتش أصحيك.

- حاضر.

انتهيت من الإفطار وذهبت لأحمد صديقي حيث ذهبنا نجلس مع بقية الرفقاء.

= إيه ياعم يوسف بقينا بنحجز عشان نشوفك ولا إيه؟

هكذا بدأ مصطفي حديثه معي.

- لا والله يا درش بقالي فترة مشغول وكان عندي كام حوار كدة بس الحمد لله اتحلوا كلهم.

= طب يلا نلعب عشرة دومنة بقا.

- يلا يا دكتور محمد بس مفيش كلام وخم زي كل مرة.

= ههههه لا متخافش.

كنت جالسًا مع أصدقائي ولكن شعرتُ أن ذهني شارد في مكان آخر أو شارد حيث أن مريم لم تعاود الاتصال بي مجددًا، تركت أصدقائي لحظات وحاولت الاتصال بها ولكن الهاتف ما زال مغلقًا،

وهنا تحول شكي اللحظي وقلقي تجاهها أن ثمة شيء يحدث أنا لا أعلمه، وهنا قلت لأصدقائي أنني سأرحل لأن أبي طلبني ويريدني، خطواتي في الطريق غير منتظمة، وأنا مُركز على هاتفي منتظر أن تتصل مريم.

***

انقضى اليوم تقريبًا ومريم لم تتصل بعد، إنها الثانية عشر بعد منتصف الليل!

= مالك يا يوسف شايفك قاعد متوتر كدة؟!

هنا قطع حمزة تفكيري المتواصل فيما يجري لمريم.

- لا مفيش مخنوق شوية كدة.

= مخنوق من إيه بس؟! هو في حد زيك ياعم ده انت ناجح وعيد ميلادك كمان كام يوم وهتصيف يعني كله تمام.

- ههههه مش بالشكل ده ياعم حمزة، بكرة لما تكبر هتعرف إن في حاجات تانية بتشغل تفكيرك وتاخد وقتك وتقلب مزاجك.

= ممكن! بكرة نكبر ونشوف.

= نفسك في إيه بقا في عيد ميلادك عشان أنا محتار ومش عارف أجيبلك إيه؟!

- مش عايز حاجة يا حبيبي.

= لا إزاي ده لا بد منه.

= في واحد صاحبي بيقولي علي رواية تجنن.
- اسمها إيه؟

= أحببتُ أفعى.
- يخربيتك إنت ورواياتك روح ياعم حمزة بقا هي دي الهدية إللي إنت عايز تجبهالي في عيد ميلادي!! أفعى يا حمزة أفعي!

= هههههه ياعم أنا مليش في القراية بس صاحبي بيقرا وبيقول إنها جميلة، وبتصف أغلب العلاقات الرومانسية، بس بيقول إنها بتصف البنات بإن أغلبهم غدارين وكدة وده باين من الاسم؛ إنهم أفاعي.
- مين المتخلف اللي قال كدة؟! البنات يابني مش كدة خالص دول حلوين وطيبين تلاقي الكاتب مجروح بس مش أكتر.

= مش عارف بقا، خلاص أنا غيرت رأيي وهشوفلك حاجة تانية.
- آه ياريت والله يا حمزة.

= طب أسيبك أنا بقا وآديني ضحكتك شوية أهو.
- ههههه ماشي.

ما إن خرج حمزة من غرفتي، إلا وقد حدثت الانفراجة، رسالة تُفيد بأن هاتف مريم أصبح متاحًا، أسرعت إلى محادثتها:

- إيه يا مريم قلقتيني عليكِ فينك من الصبح؟

= ماما تعبانة أوي يا يوسف.

- ألف سلامة مالها في إيه؟

= جالها غيبوبة سكر الفجر وأخدناها المستشفي ولسة ماخرجتش لغاية دلوقتي.

- ينهار أبيض!! لا مليون سلامة ليها يا حبيبتي وإن شاء الله هتخرج بالسلامة.

- طب هي حالتها عاملة إيه دلوقتي؟

= الدكتور بيقول في تحسن الحمد لله.

- طب الحمد لله.

- أنا كنت هموت من القلق والله.

= والله الموب فصل شحن ومكنتش مركزة خالص وكنت حاسة إني تايهة.

- مش مهم المهم إن مامتك تكون كويسة.

= إن شاء الله هتبقى كويسة.

- إنتِ روحتِ ولا لسة؟

= أنا وبابا لسة داخلين البيت عشان مانعين حد يبات في المستشفي وبكره الصبح هنروح.

- طيب روحي نامي عشان إنتِ تعبانة ولو احتجتِ أي شيء رني عليا بس، واشحني الموبايل عشان أبقا أطمن عليكِ وعلى

مامتك.
= حاضر إن شاء الله.
• إن شاء الله يا حبيبي، بحبك أوي.
= وأنا كمان يا روحي.
• تصبحي على أخبار حلوة وعلى سلامة مامتك إن شاء الله.
= إن شاء الله يا حبيبي.

الآن هدأ روعي وأصبحت في وعيي نوعًا ما بعد أن هاتفتني مريم واطمأننت عليها، كان يومًا عصيبًا ولكنه مر كعادة الأيام.

***

وفي اليوم التالي تأكدت من مريم أن أمها عادت إلى المنزل سالمة وبات كل شيء على ما يرام وانقشعت هذه الغُمة عن مريم وحمدتُ الله على هذه الانفراجة، وعاد كل شيء بيني وبين مريم إلى طبيعته بعد زوال هذه المُعضلة.

٢٠١٢/٧/١ أتممت واحد وعشرين عامًا بالتمام والكمال، ولكن لحقيقة الأمر لقد ولدتُ في أحد الميكروباصات في صباحات فبراير الماضي عندما التقيت بجنة حياتي ودنُيتي ونبضي مريم، من هنا شعرتُ بالحياة ومعانيها، ولكن قد فاتني عشرون عامًا أخرون لم

يحملوا لي شيئا إلا جمال عائلتي وتعليم مُبهج. ركضت الأعوام وما كنت أهتم لركوضها ولكن اليوم أصبحت أود أن تقف حيث أن مريم هنا بجانبي، فليتوقف الزمن ولو لقرنين فأنا هنا مع مريم لا أود المغادرة أيًا كانت الأسباب، واحد وعشرون عامًا وأنا أبحث عن نفسي وعن شبيهتي حتى عثرتُ عليها وأنا في غفلة من أمرى، ربما يكون هذا اليوم هو أول احتفال لي بعيد ميلادي حيث أن حياتي مُكتملة الصفوف الآن، أنا فرح جدًا، ولا يسعني الكوكب من انبساطي، وفي صباح هذا اليوم كان أول صوت أسمعه هو صوتها الحنون:

= صباح الجمال على قلبي الصغنون اللي كبر وبقا واحد وعشرين سنة مرة واحدة.

- صباح الفل على إللي فعلًا حسيت معاها بطعم الحياة، وعشتها فعلًا بوجودها.

= طب اسمع بقا عشان كتبالك حاجه إبداعية سهرانه عليها طول الليل.

- سمعيني يا قلبي.

= «أشكر تلك الخطوات المُتعجرفة التي قادتني إلى لقائك، إنني ممتنة لكل خطوة ساهمت في الوصول إليك، أنا مدينة للقدر

الذي أوقعني بك، صدقني فأنا لم أكن أعلم طريق الحب إلا عندما دلتني عيناك وأنا في غفلة من أمرى، لم أتذوق لذات الحياة إلا عندما سمعت صوتك ورأيت حنانك، أنا وإن غفلت عن العشق سنين فها أنا عثرتُ عليه من منبعه حيث قلبك المُضيئ، لقد سرقتني أنا وقلبي في تلك اللحظة التي نطقت فيها اسمي بطريقة تختلف عن الآخرين وكأنني أسمع اسمي لأول مرة، إنني يختلج صدري بالدفء عند رؤية هاتفي ينطق باسمك، إن سماع صوتك يُضاهي حصولي على جرعة أكسجين لا متناهية، سيدي أنت أسرت عينيّ منذ الوهلة الأولى، لقد جعلتني سجينة حبك، أنا هنا بجانبك وهناك حيث إن سقطت وجدتني عونًا، أنا باقية وإن رحل عنك الكون كله، أنا بقلبي وعواطفي وروحي ملكًا لك إن أشرت لأحدهم جاءك راكعًا طالبًا منك المُنى يحققه إليك، أنا يا قُرة عيني ويا فلذة كبدي بين يديك وبجوار قلبك إن اتكأ وجدني.»

- يا ربي إيه العظمة دي يا روح قلبي والله ما عارف أرد دي أجمل وأرق هدية شوفتها في حياتي فعلًا والله، إنتِ جميلة كدة إزاي؟

= دي شوية في حقك أساسًا ده أنا مستحقرة نفسي.

- شوية إيه بس ده أنا هعيط والله.

= تعيط إيه بس يا قلبي، كل سنة وإنت طيب يا عيوني وإنت

معايا كدة ومتحرمش منك أبدًا وعقبال مليون سنة وإحنا مع بعض كدة.

- وإنتِ طيبة يا حياتي وقمري ومانجتي، وإنتِ طيبة يا مريومتي وعقبال ما نحتفل بعيد جوازنا إن شاء الله.

= يارب يا حبيبي.

- على فكرة بابا واخدنا الصبح العين السخنة عشان نحتفل بعيد ميلادي هناك.

= وتسيب مريم لوحدها كدة!

- يا لهوي يا قلبي، أنا عمري ما أسيب مريم لوحدها، أنا أسيب الكون ده كله ولا أقدر أسيب مريومتي.

= آه مانت هتسبني الصبح.

- خلاص يا عيوني مرحش.

= لا بهزر يا حبيبي روح مع العيلة عشان تتبسط وتحتفل بعيد ميلادك، ولما ترجع تعزمني العزومتين مرة واحدة؛ النجاح وعيد الميلاد.

- بس كدة؟ من عيوني.

= تسلملي عيونك الجميلة دي.

أي كلمات أطلقتها هذه الفاتنة حتى يقفز قلبي هكذا؟ هو لم يسمع كلمات كهذه من قبل ولم يشعر أن أحدهم يهتم لأمره

كأنه آخر الوجود على الكوكب! من أين لها أن تغير حياتي بهذه السرعة؟! كيف استحوذت على أفكاري وعواطفي؟ ومنذ متى وأنا أشعر بالكسوف لمدح أحدهم لي؟! أنا أشعر أنني ما زلت في حلم ما، حلم طال كثيرا ولم ينتهِ، أيعقل أن كل ما يحدث لي حقيقة؟!! ما هذا الجنون الذي أصاب عقلي؟! أنا أسير حقًا، ولكنني أحببت هذا ولو كان خيالًا يُداهمني لتمنيت أن أعيش ما تبقى من حياتي في الخيال، فما أجمله من خيال جعلني ألامس السماء فرحًا واغتباطًا.

***

- إيه يا ندى مردتيش على الموبايل ليه؟

= معلش والله كان صامت ومسمعتوش.

- طيب ماشي.

= إنت واحشني جدًا يا أحمد.

- وإنتِ كمان أوي.

= كنت بتعمل إيه كدة؟

- والله أنا نازل رايح ليوسف كمان شوية.

= آه تقعدوا على كافيه بقا.

- آه بيقعد يحكي على قصته الرومانسية.

= هو يوسف بقا بيحب ولا إيه؟

- آه يا بنتي من فتره هو أنا مش حكتلك خالص ولا إيه؟!

= لا أبدًا.

- آه ياستي بيحب واحدة اسمها مريم بس بصراحة عسولة جدًا وهو كمان عسل أصلًا بس إيه بقا بيحبو بعض جدا جدا، هو بيقولي هيخطبها أول ما يخلص وأبوه وعده بكدة، وهي وعدته إنها مش هتكون غير ليه، وعايشين قصة مفيهاش مشاكل ولا أي عقبات، مسهلين الأمور على بعض.

= إمممم، وهي قد إيه بقا؟

- أصغر منه بسنتين.

= في كلية إيه؟

- كلية علوم.

= ربنا يسعدهم ويكملهم على خير.

- يارب ويسعدنا إحنا كمان بس نبطل شوية مشاكل وغم.

= تقصد إيه يا أحمد؟ قول قول تقصد إن أنا بتاعة غم صح؟! متتكسفش قول إن أنا بحب المشاكل.

- بصراحة يا ندي آه هههههه.

= روح انزل ليوسف يا واطي بدل ما أقلبهالك غم وتبقى مشكلة لرب السما.

- هههههه حاضر بلاش مشاكل أحسن، باي يا أحلي نكدية في الدنيا.

= باي يا سكر.

***

انقضت شهور على حبنا المهول الذي لا يتوقف عن النمو يومًا بعد يوم، المودة تزداد بيننا والعشق يترعرع، كل شيء يكبر بيننا؛ وعودنا لبعضنا الآخر، وفي كل ليلة تزداد لهفتنا لبعضنا الآخر، نحن أصبحنا في حكم المخطوبين تقريبًا، اقتربنا من بعضنا وكسرنا أي حاجز كان يحول بيننا، الآن بدأت تظهر بعض المشاكل من وقت لآخر، كنت على علم بحدوث ذلك مسبقًا لأننا لسنا بملائكة؛ فبالتأكيد أن أحدًا منا سيُخطئ يومًا، ولكنها كانت مشاكل عابرة فالحب قادرٌ على فك أعتى العُقد وحل أصعب المشاكل والمعُضِلات، الآن اختلفت معادلات الحب وتغيرت المُجريات، لقد أصبح حديثنا يجتاز الساعات ورؤيتها أمر حتمي يوميًا إلا في بعض الأيام التي تتخللها الاعذار، الآن كل شئ أضحى حساسًا للغاية ولا بد من انتقاء القرارات حتى لا نسقط في أي مشكلة، الأمر اختلف برُمته وباتت المشاكل التي تحدث تسبب ضجيجًا في رأسي فأنا لا أحب أن أخوض معاها عراكًا في شيء ما وكل ما أحاول فعله هو الانتهاء سريعًا من هذه المشاكل حتى لو كلفني ذلك أن أجعل نفسي مخطئًا ولو لم أكن هكذا، أنا أريد فقط السعادة والراحة لها ولو كان ذلك ثمنه روحي.

***

«حبيبي أنا عايزة أشوفك أنا جايه الجامعة أهو في الطريق،»
وصلتني هذه الرسالة بعد خروجي من المحاضرة مباشرة وقررت انتظارها في مكاننا المُحبب.

- وحشتيني يا قلبي.

= وإنت كمان أوي، أنا أساسًا نازلة عشان أشوفك.

- ليه معندكيش حاجة ولا إيه!

= آه الدكتور قال امبارح إنه تعبان ومش هييجي.

- طب كويس أهو نقعد مع بعض شوية.
- نشرب قهوة ولا إيه؟

= لا أنا لسه مفطرتش.

- تفطري إيه يا روحي؟

= مش عارفة هاتلي زيك

في حقيقة الأمر أنني لم أشعر بالجوع ولكني سأضغط على نفسي لتناول الطعام سويًا، فأي شيء معها له لذته الخاصة ومذاقه الفريد.

- جبتلك رومي فرن و بطاطس صوابع.

= يا حبيبي إللي هتجيبه هيبقى حلو عشان من إيدك.
- تسلميلي يا نور عيوني إنتِ.

= بقولك يا يوسف كان نفسي أسالك كام سؤال كدة.
- اسالي يا حبيبتي.

= بعيدًا عن الواقع، بس نفترض أو نتخيل كدة_ بعد الشر _ لو بعدنا عن بعض هتعمل إيه؟
- إنتِ عارفة بيقولوا الروح لما بتطلع، الجسم بيفضل شغال شوية كدة قبل ما يتوقف خالص، أهو الفترة اللي شغال فيها بس دي هتكون عبارة عن حياتي، موت إكلينيكي، لا مشاعر لا حب لا حياة، كل شيء هيكون ملوش معنى، مجرد جثة هامدة، شوية أنفاس داخلين شوية خارجين، مُستنفذ تمامًا، أنا عمري ما فكرت في إن ده هيحصل لأنه كفيل بإنه يخليني مُكتئب لأيام فأنا مبحطش الفرضية دي نهائي، حاجة كده زي ما الواحد يفكر هيبقى إيه شعوره وهو ميت وهو في القبر، فأنا بعتبر ده زيه كدة مصيبة أتمنى متحصلش إلا مع الموت الفعلي عشان أحس بالألم ده مرة واحدة، لإنه فعليًا مُرعب جدًا.
- بتسألي سؤال مُخيف زي ده ليه؟!

= لا والله مجرد تفكير عابر مش أكتر.
- أتمنى إنه مايحصلش أبدًا إن شاء الله.

= إن شاء الله.

- طب أقوم أجيب قهوة أنا بقا.

= ماشي.

ذهبت لأجلب القهوة وأنا أشعر بأنها قد وضعت ثُقل الجبال على قلبي لمجرد سؤالها لسؤال هكذا، وعقلي سينفجر من التفكير أكان سؤالًا عابرًا أم واقعًا تود الوصول إليه يومًا؟! ما الذي سأفعله حقًا إن حدث مثل هذا؟! لا لا لن يحدث، الحياة قادرة على فعل كل شيء. لا لن يحدث هذا معي أنا أثق فيها كثيرًا وكذلك أرى أن الله لن يخذلني فيها، لم يكن عليها أن تطرح سؤالًا باهتًا كهذا، أنا حزين فعلًا، ربما عليّ أن أوبخها للتفكير في هكذا فِعل! لا لا ربما كان عابرًا لا أكثر ولا أقل.

صوت مرتفع «اتنين قهوة مانو» «اتنين قهوة مانو»، لم أكن منتبهًا أنني كنت ذاهبًا لأجلب القهوة، لأن عقلي منشغل تمامًا في ذلك السؤال الذي فتك عقلي تفكيرًا، «أنا آسف مخدتش بالي القهوة دي بتاعتي»، هنا وضحت عصبية البائع: «بقالي ساعة بنده عليك وإنت واقف قدامي إيه خلاص مفيش سمع»، «لا معلش كنت بفكر في حاجة، أنا متأسف مرة أخرى»، شعرت أنني مُغيب عن الوجود لمجرد التفكير فيما قد يحدث لو افترقنا، فماذا سيحدث لي حقًا إن وقعت هذه المُصيبة؟!! وصلت إليها وأنا شاحب الوجه، الحزن يملأ عيني، وخطواتي توضح مدى الثُقل الذي حمله قلبي،

غير قادر على فعل أي شيء، أعطيتها القهوة وذهني شارد تمامًا، لاحظت ذلك وشعرت أن ذلك السؤال قد نال مني، فوضعت يدها على لحيتي باستعطاف وأخذت بتحريك يديها بحنان على وجهي وقالت:

= قلبي ماله زعلان مني ليه كدة؟

- اسألي نفسك.

= يا حبيبي والله ما أقصد أنا بسأل سؤال جه على دماغي بس، أنا آسفة والله مش هيتكرر تاني يا حبيبي، ويا سيدي إن شاء الله مش هيحصل حاجة أبدًا ولو كان على روحي، أنا فراقي ليك تمنه روحي صدقني.

- بعد الشر عليكِ متقوليش كدة.

= لا ما هو إنت زعلت أوي وتلاقيك بقا عمال تفكر إني ممكن أسيبك والهبل ده.

- لا خلاص مفيش حاجة يا حبيبتي.

= طب اشرب يلا عشان نروح ماما اتصلت عليا.

- ماشي يلا.

***

كان يومًا حزينًا للغاية اختلطت فيه مشاعري، وأصبح هناك جانب آخر يؤرقني ويأخذ تفكيري، ولكني أحاول مراوغته

من حين لآخر حتى لا يتفرد بي ويقودني إلى تلك الأفكار التي ستجعلني حزينًا وتصبغ يومي بالسواد والألم، حتى عندما هربت من ذلك السؤال بالنوم، لم يتركني وباغتني بحلم أشبه بأفلام الرعب؛ يصور لي نهاية مأساوية ستؤول إليها قصتي مع مريم، استيقظت من نومي مفزوعًا والرعب يتملكني، هلعت وركضت إلى الحمام وتوضأت وصليت الفجر وسألت الله ألا يبعدني عن مريم وأن يحفظني بعيدًا عن أفكاري وعن تلك الكوابيس التي تفزعني، وعدت إلى فراشي مرة أخرى وبعض الدموع تذرف مني على تلك النهاية التي رأيتها في منامي وصدع لها قلبي ..

لقد مر عام بالتمام والكمال على تلك السرقة التي نهبت فيها مريم قلبي وعيوني، مر عام على أجمل لحظات حياتي على الإطلاق، أقسم أنني على حافة جنون الحب بتلك الفتاة التي جعلتني عاشقا متيما بها وبكل تفاصيلها، مر هذا العام سريعا ويمكنني أن أصفه بأنه أفضل أعوامي في هذه الحياة على الإطلاق، عندما شعرت أنني ولدتُ مرة أخري من عيونها وتلك النظرات التي أعطتني حياة مُغايرة عما كنت أعيش، فأنا ما زلت أشكر القدر والظروف على إيقاعي في هذه الساحرة، أنا سأحتفل بهذا اليوم كونه يوم ميلادي ويوم حبي ويوم عشقي، سأحتفل به وكأنه أول وآخر أيامي في هذه الحياة، لابد أن أمجد ذلك اليوم الذي بعثني إلى الحياة من جديد، إنه العشرون من فبراير لعام ٢٠١٢

ذلك اليوم الذي لن ينفصل عن ذاكرتي مهما توالت السنين ومهما تغيرت الأحداث ...

= حبيبي إنت عارف النهارده كام؟

- آه يا مريم، النهارده عيد ميلادي، زي النهارده يا مريم من سنة وقعت عيني على أرق وأجمل إنسانة في الوجود، زي النهارده من سنة قلبي اتولد من جديد وشوفت الحياة على حقيقتها، زي النهارده أنا عرفت معنى الحب وعرفت أنا عايش ليه، زي النهارده كانت أحلى تأخيرة ليا عشان ألحق آخر كرسي في الميكروباص اللي كان جنبك، لسة فاكر كل تفصيلة وكل حاجة من اليوم ده من أوله لآخره، مريم انا بحب اليوم ده أوي، وبعشقك إنتِ لدرجة اللا حدود.

= والله يا حبيبي وأنا بحب اليوم ده جدا وبعشقك يا عمرى وربنا يخليك ليا وميحرمنيش منك أبدا.

= بس لازم نحتفل بقا.

- طبعااا لازم نحتفل هنتقابل إمتى؟

= الساعة ستة كدة هيكون حلو في الكافيه إللي في الميدان.

- خلاص إشطا نتقابل هناك.

***

«يوسف يلا عشان تيجي معانا رايحين كلنا نزور تيتا» شعرت

بالأسف حقًا بعد أن قالت لي أمي أنهم ذاهبون لزيارة جدتي بينما أنا على موعد مع مريم، وجدتي تسكن في محافظة أخرى وهذا يتطلب سفرًا، وهذا يعني أنني لن أقابل مريم ونحتفل بذكرى حبنا، شعرت أنني عليّ التصرف في هذه المعضلة سريعا، ولذا فقررت أن أتهرب من الرحيل معهم فقلت لأمي «أنا آسف يا ماما بس أنا كنت واعد أحمد صاحبي بإني أروح معاه للدكتور عشان مفيش حد هيروح معاه وكدة، ومش عايز أخلف وعدي معاه عشان مارحتش معاه المرة إللي فاتت، أجابتني أمي: «يعني إنت مش هتيجي؟ مش هعرف يا ماما، أنا هبقي أزور تيتا آخر الأسبوع لوحدي، ففرحت أمي وقالت: طالما هتزورها يبقا خلاص خليك إنت المرادي، هنا شعرت بفرحة كبيرة أنني سأقابل مريم وأنني لن أرحل معهم بعدما وافقت أمي، ورحلوا وتركوني وحيدا في البيت.

***

- إيه يا مريومتي إنتِ فين؟

= أنا جاية على الكافيه أهو.

- طب يلا أنا مستنيكِ من زمان.

= خمس دقايق وهكون قدامك.

- خلاص إشطا مستني.

كنت جالسا أفكر أي الكلمات سأنطق أمامها، كنت جالسًا أرتب كلماتي وبينما أنا أفكر فجأة سقطت القهوة على ثيابي بغرابة شديدة جدا لأنني لم أحركها قط ولم يحدث أي شيء يجعلها تسقط، وهنا شعرت برعشة تملكت جسدي أنا لا أفهم ماذا حدث؟! الخوف دب في قلبي لا أعلم لماذا!! فقررت الذهاب إلى الحمام ونظفت ثيابي وعدت
فوجدت مريم بانتظاري.

- كل ده تأخير عاجبك كدة القهوه وقعت عليا.

= يالهوي يا صغنوني إزاي بس؟!

- مش عارف والله زي ما يكون زلزال ضرب جسمي مرة واحدة.

= فداك يا قلبي مش مهم

- يلا بقا عدت على خير.
- وحشتيني جدا يا نور عيني.

= وإنت كمان يا قلبي وحشتني جدا جدا يعني.

- إنتِ عارفة أنا ماكنتش جاي.

= يا نهارك مش فايت!!

- آه والله ماما والعيلة راحوا لتيتا وكانوا عايزين ياخدوني

معاهم بس أنا اتصرفت يعني، هو أنا أقدر أتأخر عن حبيبي!
= لا شطور يا حبيبي.

- أنا بقا بعشق اليوم ده ٢٠ فبراير، أجمل يوم في الوجود كله حقيقي مش هنسي اليوم ده أبدا وهيبقى عيد كل سنة.

هنا كانت مكالمة من هاتف غريب يقطع حديثنا، توقفت عن الحديث ونظرت للهاتف ثم لمريم وقلت لها: «مين إللي بيتصل في توقيت زي ده بس؟ طب أنا مش هرد.» ولكن مريم كان لها رأي آخر: «رد يا حبيبي شوف لتكون مامتك محتاجة منك حاجة.» قررت إطاعة مريم وأن أجيب عن الهاتف.

- ألو.

= ألو، معايا يوسف أحمد الرفاعي؟

- آه مين معايا؟

= حضرتك أنا ببلغك إن أهلك عملوا حادثة وهم في المستشفى حاليا.

- إنت مجنون مين إللي عمل حادثة!!!!!!!!

= أهل حضرتك وهم دلوقتي في المستشفى.

هنا تغيبت عن وعيي وسقط الهاتف من يدي وآخر شيء أدركته هو صراخ مريم؛

«الحقونااا»، لم أدرك ماذا حدث لقد كانت الصدمة قوية للغاية، فأنا سمعت كلمات المتصل وشعرت أن كل شيء في جسدي قد جف وأن الدماء توقفت عن التنقل في جسدي، وأن أحدهم قد صدمني بشيء على رأسي ففقدت الإدراك، ولم أستفق إلا وأنا في المستشفى، محاليل معلقه لي، وهناك بعض الإبر المدسوسة في جسدي، أشعر بدوار فظيع ولكني تذكرت أن أهلي في خطر؛ فنزعت الإبر من جسدي وحاولت القيام ولكن الممرضين ومريم منعوني من فعل هذا، ثم قالت لي مريم وهي تبكي: «اهدى يا حبيبي أهلك بخير.»، وهنا شعرت ببعض الراحة بعدما قالت لي مريم هذه الكلمات، ودخل الطبيب فجأة، وأمر بإعطائي حقنة وهنا غرقت في النوم لم أشعر بما يدور حولي.

***

وفي صباح اليوم التالي استيقظت وأنا في كامل وعيي وقوتي، وهنا قلت لهم لن يردعني أحد عن رؤية أهلي، فخرجت وذهبت في كل أرجاء المستشفى أبحث عن أهلي، أين هم؟!!! فليجيبني أحدكم أيها الأوغاد، أركض في المستشفى كالمجنون، حتى أوقفني أحد الأطباء وقال لي:

«اهدى أنا هقولك هم فين تعالى معايا.»

ذهبت معه والدموع تذرف من عيني كقطرات المطر، والألم يملأ

صدري، والصراخ ينبع من قلبي، وأخذني إلى غرفة مغلقه وقال لي: «إنت لازم تهدى وتسمع كويس الكلام إللي هقوله، لإن إنت راجل مهندس وواضح إنك مؤمن وكمان فاهم كويس الحياة وسنتها.» هنا أدركت أن فجيعةً ما قد حدثت لأحد أفراد عائلتي، فنبحت كالطفل الصغير وكل شيء ينزف مني؛ الدموع، الحزن، الألم، والصراخ، و الدماء من أنفي، أنا لا أشعر بشيء، قلت له من رحل منهم؟ أجبني من أراده الله بجانبه؟ من قُدر له أن يتركني هكذا ويرحل؟ لا أعلم، أمي عاهدتني على ألا تتركني وحيدا، أبي منذ الصغر وهو يقول لي أنا بجانبك دائما، حمزة لا يستطيع أن يكمل يوما بدوني، خديجة كابنتي لا تنام إلا في أحضاني، فقل من منهم سيتجرأ على الرحيل وتركي؟ قل إنك كاذب وإنهم عادوا إلى المنزل جميعا، بكى الطبيب بكاءً يُضاهي بكائي ونبح كالأطفال مثلي وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، أعانك الله يابني على ما أصابك، وعوضك خيرا عنهم جميعا»

ما الذي تقوله أيها الأبله، أتقصد أنهم تركوني جميعا؟!! أتقصد أنهم رحلوا معا؟!! بماذا تتفوه أيها المجنون، كيف لهم أن يتركوني هكذا؟ «أمي أين أنتِ!!» «يا أبتِ إلى أين رحلت!!» «يا حمزة ويحك تركتني!!» «آه يا خديجة لماذا فعلتِ هذا؟!!» «أنا لن أسامحكم على فعل هذا، «وا خيبتاه، وا أسفاه.» أمي أنا أريد أن

آتي معكم، يا ليتني ما عصيت أمرك، يا إلاااااااهي، يا مصيبتي، يا حسرتي، فلتنقطع أنفاسي، لا أريد
البقاء هنا وحدي، لماذا تركتموني وحدي؟ أنا لن أستمر هنا، سآتي معكم لن أبقى هكذا، يااا ربِ خذني إليهم، يا ربِ كيف كان هذا !!!!!!!! يا ربِ لماذا!!!!!!! يا ربِ لم يخطئوا!!!!!! يا ربِ أنا آسف أعدهم لي !! يا ربِ خذني إليهم، يا ربِ أعد لي أحدهم حتى يطيب خاطري !!!! «اهدى يا بني، إن عوض الله جميل» عن أي عوض تتحدث !!!!!!!! وهل هؤلاء يُعوضوا !!!!!، وهل هؤلاء لهم مثيل !!!!
أنا لن أسامحكم أبدا ماذا فعلتم بي؟ «أريد رؤيتهم خذوني إليهم، رجاءً أريد رؤيتهم»
«حسنا»
أخذني إلى المشرحة وقال لي «لن أريك إلا أمك»، وعندما كشف وجهها، رأيت ملاكا والله لقد كانت ملاكا، «أمي هيا بنا لتأخذيني إلى المدرسة كما كنت صغيرا، أمي لن أترك الصلاة كما وعدتك، هيا أمي والله لن أترك زجاجات المياه فارغة مثل الماضي، هيا يا أمي والله لن أتاخر خارج البيت مرة أخرى، فقط عودي وأنا أعدك أنني لن آكل بالخارج مرة أخرى، أمي أفيقي وأنا لن أضايقك مرة أخرى، أمي والله لو عدتِ لن أتوانى عن أن ألبس ملابس ثقيلة في الشتاء كمان كنتِ تريدين، رجاءً أمي أجيبيني فأنا في حاجة

إليكِ، لقد قلتِ لي أنكِ تحبيني فلماذا تركتِني؟ لقد قلتِ لي أنك لا تفضلين بيني وبين إخوتي؛ فلماذا أخذتِهم وتركتِني أنا؟ أمي بحقك قولي لي شيئا، أمي بالله عليك لا تخذليني، أمي أود أن آتي معكم، أأنتحر؛ ولكني والله أخاف أن أفعلها فأعصي ربي وأعصي إيماني الذي ربيتِني عليه، أمي بالطبع لم تنسِ تلك الليلة التي جلستِ فيها معي وطلبتِ مني ألا أبتعد عنك ولو لليلة، أنتِ نقضتِ الوعد يا أمي ورحلتِ، لماذا يا أمي لماذا!!! ألم تعاهديني على أنك ستقيمي لي عرسًا كبيرًا؟ ألم تقولي أنكِ تحلمي برؤية أولادي، أمي إلى أين الرحيل !!! أمي عودي يا أمي عودي. «هيا يا بني كفاك نحيبًا» ، «أي نحيب هذا الذي يكفي لرثاء فلذات كبدي هؤلاء، أي صراخ يهدئ من رحيلهم عني؟ أريد أن أرى أبي وإخوتي»، «لا أسف الحادثة كانت قوية عليهم شوية وصعب، يلا بقا أنا عملتلك إللي إنت عايزه أهو». صرخت صرخة تكاد تُعيد الموتى من موتهم، صرخة هلع لها جميع من هم بالمستشفى حتى ركضوا وخدروني خوفا من انفجار أعصابي ....

رأيتهم في منامي، أمي تقول لي: «يوسف تشجع ولا تكن هشا هكذا، أكمل حياتك وأنا في انتظارك بالجنة» وأبي: « لا تبك يا ولدي إن الله بجانبك، ونفذ أمره ولا تكن كالكافرين، اخضع لأمر الله واصبر إن فرج الله آت» وحمزة: «أخي أحبك كثيرا ولكن

هذا ما أراده الله فلا تعصِ أمره وكن قويا» ،أما خديجة: «يوسف أنا بحبك جدا، ومنتظراك في الجنة» هكذا جعلهم الله يتركون رسائلهم الأخيرة لي في منامي، هذه الكلمات هدأت من روعي وانفجاري وكان لله في ذلك حكمة، انتهت غفلتي واستفقت منها، وقررت أن أدفنهم جميعا بيدي، لقد تصدر الحدث عناوين الصحف، الجميع يبكي على مصيبتي، الكل يرأف بي وأنا لا أشعر بشيء بعد الآن !

***

وضعوا عائلتي في المسجد وأنا أصلي عليهم والناس من خلفي يصلون والبكاء يتملك الجميع، وقبل الصلاة: من لديه دين مادي عند أهلي فأنا مُكلف به ومن لديه دين معنوي فليسامحهم، لا أعلم ما هذه القوة التي تملكتني وكأن الله ملأ قلبي بالهدى والرصانة، ولكن سرعان ما انقلبت هذه القوة إلى وهن عظيم مع أول تكبيرة في الصلاة عليهم، وفي كل مرة أقول الله أكبر بصوت يملؤه الحزن والألم والوهن والفقد، يبكي الناس من خلفي بصوت مرتفع، انتهت الصلاة، وكان مشهدا كبيرا جدا لم أر مثيلا له، أتقدم الجنازة وقدماي لا تحملاني، صديقي أتكئ عليه، وجهي شاحب جدا ويكاد اصفراره أن يقارب لون الشمس، عيناي تفيض دموعا والهالات تحتها قد طفحت سوادا، يقول الناظر لي إنني ميت أو

في عدادهم، لا شيء يعبر على أنني سأستطيع الحياة مجددا، كل شيء يؤشر بأنها بضعة أيام أو شهور وسألحق بهم لا محالة، لقد تم الدفن وأنا في أوج ألمي وصراخي، وقلبي مفطور، والله إن حزني لو تم توزيعه على العالم لكفاهم وفاض منهم. أحد الشيوخ الأجلاء في الأزهر الشريف يلقي خطبة وأنا راكع أمام قبورهم وأبكي ويد الشيخ على رأسي، يقول: بسم الله الرحمن الرحيم {وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مُصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون}، يا بني لقد نفذ أمر الله وأراد سبحانه وتعالى أن يبتليك أشد البلاء في فقد عائلتك، وإنك لمن المُمتحنين في الصبر وتحمل البلاء؛ فإن صبرت كان لك الأجر الكبير، وإن ضجرت كفرت وأمر الله نافذ، إن الله إذا ابتلي عبدا فإنما يحبه وإن الابتلاء للمؤمنين، وانظر لأنبيائنا كيف كان ابتلاؤهم، فاصبر يا يوسف وتحمل إن بعد صبرك لفرج، وإن بعده لجنّة، يا يوسف كن قويا فالحياة لا تعرف الضعفاء، ولك أجر عظيم في الدنيا والآخرة. يا يوسف ادع لهم أن يتغمدهم الله في رحمته الواسعة وأن تلحقهم على خير وأن يثبتهم الله عند السؤال، فلندعوا لهم جميعًا أن يكونوا مع الأنبياء والصديقين ..

رحل الجميع من حولي وما زلت أنا جالسا بجانبه أشعر بالدفء بالقرب منهم، لا أريد مغادرتهم، هنا حيث أهلي يكونوا لا بد

أن أكون، حل المساء وهنا كانت عائلة أمي وأبي يقفان بجانبي ويقولون: هيا يوسف لقد حل المساء وما زلت هنا هيا لنذهب إلى البيت، أي بيت!! بيتي هنا حيث عائلتي، أنا لم يعد لي بيت لقد انهار بالأمس لقد تم نقله إلى الجنة، هنا فقط الجحيم الذي تبقى لي، الجحيم الذي سأعيشه وحدي، لم يعد لي بيت لقد انتهى أمري، ولكنهم حملوني بعد أن بدأت أفقد قدرتي على فعل أي شيء فلقد مر يومان دون أن ترى معدتي أي شيء من الطعام أو ما شابه وهنا انتهى اليوم ولم أدرك إلى أين رحلت!

وجدت نفسي في منزل جدتي، وما إن نظرت في وجهها حتى انهمرت في بكائي: «جدتي لقد كنت آتيًا معهم إليكِ ولكني تمنعت وقلت لهم سأذهب إليها وحدي، لم أكن أعلم أنني سآتي بهذه الطريقة وحدي تماما، رحلوا عني يا جدتي، يا ليتني أتيت معهم، يا ليتني ما عصيت أمي، جدتي أنا عاص كبير، أنا مُخطئ، أنا منبوذ، أود الموت مثلهم يا جدتي».

احتضنتني جدتي وهي تبكي وقالت: «اهدأ يا ولدي، إنهم رحلوا إلى الجنة، هم بانتظارك، اصبر حتى تنال أجر صبرك» ،أخذني البكاء طويلا بين أحضان جدتي، إنها تمتلك شيئا من رائحة أمي، أنا لا أشعر بشيء بتاتا، كل شيء رحل فجأة، من أين لي أن أعيش

مجددا في ذلك البيت؟ من أين لي أن أستيقظ كل صباح ولا أرى أمي!!! من أين لي أن أكمل حياتي بدون أبي!! من أين لي أن أعيش بدون حمزة وحنانه!!!! من أين لي أن أعيش بدون خديجة وجمال ضحكاتها!!! اللعنة على تلك الحياة المرعبة التي سأعيشها، لا بد أن ينتهي هذا الكابوس سريعا ...

***

إن الموت لأفظع حدث في هذه الحياة، إنه يحرمنا أعزاء قلوبنا وفلذات أكبادنا، إن الموت يختار أنقانا خوفا عليه من أن تندسه هذه الحياة القذرة، إنه يحرق قلوبنا باقتطافه لهذه الزهور اليافعة، إنه خائن ومُخادع لتلك الدرجة التي تجعلك تخسر عزيزًا كنت تحدثه من دقائق، أو ربما كنت تجالسه من لحظات، إنه يسرقه من بين أيدينا وأمام أعيننا، إن الموت يُظهر حقيقتنا نحن البشر؛ ضُعفاء جدا، إنه يبرز ذلك الوهن الذي نخفيه بكبريائنا، نخافه ونهاب قدومه؛ نعم لأنه الحق والثابت الوحيد في هذه الحياة أن جميعنا سيتذوقه، إنه يكشف أننا جُبناء قد غلبتنا الذنوب حتى نخافه ونهابه، إنما الموت يؤلمنا أكثر بسلبه إيانا عزيز، على أن يأتي إلينا نحن مباشرة، إنني أخاف الموت على أعزائي قبل أن أخاف منه عليّ أنا، فليغتابنا ذات غفلة على أن أستيقظ ذات صباح فلا أجد أمي فكأنه سرق مني أمي وكذلك

الحياة معها، فرجاءً إن قررت يومًا فخذني أولًا عنهم.

***

ما زلت لا أفهم ما هي الغاية من مواصلة الحياة؟ بكاء دون انقطاع ونحيب أضر بأحبالي الصوتية، قهر يصدع له قلبي، والمقابر أصبحت كبيتي فأنا أحادثهم كل يوم منذ الصباح وحتى غروب الشمس، وعندما يأتي الليل فالقرآن هو ليلي، ودعائي لهم يكاد لا ينقطع، الطعام ربما لا يدخل فمي إلا عند إلحاح جدتي، وجهي أضحى كمن يعانون من المجاعات، أنفاسي ثقيلة تتظاهر بالطبيعية عند خروجها، الحياة مؤلمة ومرور الأيام لا طعم له ولا طائل منه، أيام مشابهة، بكاء قاربت دموعه أن تجف، ذكريات تكاد تفتك بعقلي، أحلام أجمل من الحياة لمجرد لقائهم بي في بعض الليالي، أنين قلبي يسمعه المار بالقرب مني، وضوضاء روحي تفضح تظاهري بالتماسك، كل يوم يأتي أحدهم ليعزيني ويهدئ من روعي ولكنه يخرج بلا فائدة، تنقضي الأيام وأنا لا أهتم، كل ما يهمني هي تلك الساعات التي أقضيها في المقابر وبعض الأحلام التي ألقاهم بها..

***

هل تعلم ما الذي يعنيه انتظارك للأحلام كل ليلة لتعيش واقعا

كنت تعيشه منذ أيام! هذا يعني أنك فقدت شغفك في المواصلة، واندثر حماس شبابك الذي يمدك بالحياة، هذا يؤشر بانتهاء لهفتك للمستقبل، ربما يعني أيضا انخماد شعلة قلبك المُضيئة، هذا يعني أن الحياة قد خذلتك خذلانا شنيعا التهم روحك، إنه يعبر عن ماض مُبهر حولته الحياة إلى حاضر مُريب، يوضح هروبك الدائم من البشر إلى النوم حيث تجد مُبتغاك بسهولة، هذا يُعبر عن انزلاق مشاعرك من القمة إلى القاع مباشرة، إنه يبين اندراج مشاعرك تحت طاولة الحنين، إنه مُنعطف يُبرز أنك أصبحت بين مقصلة الاشتياق والأمل، إن كل هذه التداعيات تُعلن انفصالك الأبدي عن واقعك المرير وهروبك الدائم إلى الأوهام والأحلام.

***

«يوسف يا ابني موبايلك رن كتير أوي، خد شوف مين» هكذا دخلت جدتي إلى غرفتي وقاطعتني وأنا أقرأ القرآن، نظرت للهاتف فوجدتها مريم ولكن الغضب تملكني وقررت ألا أجاوبها، لقد كانت السبب في عدم ذهابي معهم إلى الجنة، لقد حرمتني من البقاء معهم، عاودت الاتصال وهنا قررت الإجابة وأنا منفعل:

- عايزة مني إيه تاني !!!

= إيه يا يوسف مالك يا حبيبي اهدى.

- إنتِ السبب.

= أنا السبب في إيه يا يوسف؟

= في إني ماروحش معاهم، إنتِ إللي بعدتيني عنهم كنت المفروض أروح معاهم، وإنتِ منعتيني، أنا مش هسامحك، مش هسامحك أبدا.

= حبيبي اهدى ده قضاء وقدر وربنا أراد كدة، حبيبي افرض كنت روحت وحصل اللي حصل وإنت فضلت عايش، هو ربنا عايزك تفضل عايش.

= أيوة فعلا دي مش عيشة دي عقاب جهنم الأرض، إللي أنا فيه ده، قهر وذل مفيش حد يتحمله.

= إنت هتكفر يا يوسف، ده ابتلاء والابتلاء مايجيش إلا للمؤمنين، ربنا هيجازيك والله.

• يجازيني بإيه !!!! قوليلي مين يقدر يعوضهم؟؟ هحس بحنان أمي فين؟؟ ضهري اللي اتكسر بعد ابويا مين هيرجعه؟؟ الأمان إللي أخويا كان بيحسسهولي منين ألاقيه!!! ضحكي مع خديجة إللي كان بيطلع من القلب مين يعوضه !!!!

= محدش يا يوسف، بس والله أنا جنبك وروحي فداك، وهحاول على قد ما أقدر أعوضك عن كل شيء فقدته في حياتك، عن كل ألم حسيته، عن كل دمعة نزلت منك، عن كل صرخة صرختها بوجع، أنا يا يوسف مش هسيبك أبدا ومعاك منين ما تروح، أنا جنبك للأبد.

- مفيش حد في الكون ده كله هيعوضني حاجة عنهم، أنا بتمني بس ألحقهم في أسرع وقت ممكن.

= طب إنت عامل إيه دلوقتي؟

- أنا عبارة عن شوية أعضاء شغالة وبتقوم بوظايفها، أما روحي فهي خرجت معاهم في الحادثة، إحساسي مات معاهم، وقلبي اتدفن جنبهم، أنا شوية أنفاس بتدخل وتطلع على الفاضي.

= يا حبيبي والله حاسة بيك ربنا في عونك.

- محدش حاسس بيا ولا يقدر يحس بالنار إللي جوايا، نار الفراق والقهر، نار الحزن والسخط، نار الموت والفقد.

= عارفة والله عارفة، بس هنخالف إرادة ربنا، هنقف قدام إللي خلقنا ونعترض، هنقول لأ للي صورنا !! يوسف إنت مُجبر تكمل عشان ربنا عايز كدة، إنت لازم تكون أقوى من كدة حتى لو إنت مش قادر، إنت لازم تحاول وتحاول عشان ربنا يأجرك وتلحقهم على الجنة، يوسف عايز تنتحر مثلا؟؟

- لا، أنا عمرى ما هكفر ولله ما أخذ ولله ما أعطى.

= ونعم بالله، أيوة كدة نرضى بما أراده الله، وإن شاء الله كل شيء هيكون كويس.

- إن شاء الله.

= روح إنت عشان تنام.

- حاضر.

= تصبح على خير.

- وإنتِ من أهله.

أنا أدركت جيدًا أنها لم يكن لها ذنب فيما حدث، لقد كانت إرداة الله، ولكن غليان اشتياقي لهم يجعلني أثور في وجه أي شخص يقابلني...

***

انقضت أيام على تلك الفجيعة المريرة التي كوت قلبي وروحي معا بألم الفقد، كل الأيام متشابهة، فقط الألم يتغير كل يوم عن سابقه، فإنه يزداد ويزداد وأنا لا أستطيع الشعور من فرط الألم، إنني أذهب للنوم كل ليلة وما زلت أنتظر أمي تُفيقُني من نومي كل صباح كعادتها، إنني ما زلت أتاخر في النوم منتظرا دخول حمزة اليومي عليّ لنتحدث كما تعودنا، إنني أصحو كل صباح وألتفت في المنزل لعلي أعثر على أبي لآخذ منه مصروفي ويقبلني كما رباني على ذلك، إنني ما زلت أبحث عن خديجة لألعب معها كما كانت تحب، إنني لم أصدق بعد أنني لن أجدهم مجددا، لن أعثر عليهم مرة أخرى، أنا لا أستوعب بعد أنهم انفضوا من حولي فجأة في ليلة وضحاها !!!!! إن روحي تمتلئ بكثير من الندوب والجراح التي لن تلتئم إلا عند لقائي بهم في الآخرة !

***

لقد مر أسبوع كامل على ذلك اليوم الأسود الذي لن يغادرني للأبد، ذهبت إلى المقابر وبقيت اليوم كله بجانبهم؛ حيث تحدثت مع كل واحد منهم ما يكفي من الوقت ولو أنني أشتاق إليهم كثيرا، جلست على التراب وأنا منهار في البكاء أعيد ذكرياتنا سويًا، وأحدث أبي وأمي عن طفولتي التي كانا يصفانها بالجميلة، أبكي وأنبح، أصرخ وأتلوع، ولا شيء من كل هذا يُعيدهم لي، لا شيء يهدّئ من بركاني، إنه الواقع المُجحف، ...« لن يعودوا» هكذا عدت إلى البيت وأنا مُدرك للحقيقة التي سأعيشها، مُتيقن أنهم لن يعودوا، انقضى الأمر مطلقا، ولكن يبقى السؤال: «كيف سأكمل حياتي بدونهم!!» أسأواجه الحياة وحدي، هل سأقوي على المواصلة بدونهم !!! من أين لي أن أستيقظ كل صباح ولا أجدهم بجانبي؟ إنه لقهرٌ أن أعيش هكذا حياة، مسلوب العزيمة، مغلوبًا على أمري، فاقدَ الأمل في الحياة، الأيام لا تعني لي شيئا، أقضي أيامي حتى تنتهي خوفا من معصية الله بالانتحار، أنا مُنتهٍ بالفعل ..

- ألو يا ندى.

= إيه يا أحمد يوسف صاحبك عامل إيه؟

- شيء محزن والله، قلبي اتقطع، يوسف بيخلص؛ لا أكل ولا شرب يا دوب عايش، عمال يعيط طول الوقت وكل ما أقعد معاه يفتكر لحد فيهم ذكرى ويفضل يعيط عليها، منهار حرفيا، أنا بقعد معاه بعيط زيه والله، مُصيبة كبيرة أوي ومعرفش هترسى على إيه معاه، أنا خايف عليه أوي، ومش عارف أعمله أي حاجة، ولا حد هيقدر كل إللي أقدر أعمله إني أدعي ربنا يهديه ويصبره ويعوضه عنهم خير لإن فعلًا هو مصدوم ولازم يفوق.

= والله أنا كل ما أفتكر إللي حصل أفضل أعيط، حاجة تقطع القلب، ده في الطبيعي لما حد يموت قريبنا بفضل أعيط واتقهر عليه، بالك بقا بإللي فقد عيلته مرة واحدة، مفيش أكبر من كده مُصيبة، ولو كان ربنا وصف الموت بأكبر مصيبة، فما بالك بإنه يصيب عيلتك كلها مرة واحدة، كان الله في عونه فعلًا وربنا وحده إللي قادر يصبره ويداوي جراحه وألمه.

- يارب، أنا مباكلش والله بسببه، طول الوقت بفكر فيه، وعقلي بياخدني لتفكير سلبي، وأقول طب كان فضل حد منهم عايش يصبر قلبه بس بستغفر ربنا على التفكير ده وأقول قضاء الله وقدره.

= لا طبعًا، ربنا أراد كدة ومنقدرش نقول إلا إللي يرضي ربنا.

= طب ومريم إللي بتحبه كلمته ولا إيه؟

- معرفش والله، أنا كل اللي شاغل بالي هو بس.

= ربنا يصبره.

- اللهم آمين.

***

تنقضي الأيام تباعا وما زلتُ حريصًا على عاداتي اليومية؛ الذهاب إلى المقابر، قراءة القرآن والدعاء لهم، حتى وجدت أحد الدكاترة الذي يُدرس لي قادما لي البيت في أحد الأيام بعد عِلمه بما حدث لي، وكان لهذا الدكتور مكانة كبيرة في قلبي وهو على علم ديني كبير، دخل إلى غرفتي:

= إزيك يا يوسف عامل إيه؟

- الحمد لله يا دكتور.

= إيه يا هندسة الكلية مش وحشتك ولا إيه؟

- لازمتها إيه يا دكتور ما إللي كنت داخلها عشان أفرحهم راحوا، ملهاش لازمة.

= على فكرة إنت لو سبتها هيزعلوا منك جدا، هم بيعرفوا كل حاجة عنك، حاول تفرحهم.

- يا دكتور الشغف إللي جوايا انتهي لأني أكمل الحياة.

= بص يا يوسف بما إنك اسمك يوسف فأنا هبدأ بقصة نبينا يوسف، شوفت إرداة ربنا لما خلاهم يرموه في البئر ده كان عشان

السيارة إللي رايحين مصر ياخدوه معاهم، وعلى الجانب الآخر أبوه يعقوب كان هيتجنن عليه وعدى من على البئر إللي فيه يوسف وربنا أراد إنه مايعرفش إنه تحت، عدت سنين ويوسف إللي راح مصر كعبد أصبح عزيز مصر كلها، ويعقوب إللي كان نبي وعلى صلة دايمة بالوحي وربنا كان هيفقد صوابه وعقله بسبب رحيل يوسف المؤلم وفضل لغاية ما فقد بصرة من شدة البكاء لأعوام، في نهاية الأمر رجع يوسف ليعقوب ورجع بصر يعقوب المفقود وهنا عشان هما صبروا وآمنوا بربنا، فمهما اشتد البلاء لا بد من بزوغ الفرج، بص لأيوب صبر قد إيه، شوفت نوح قعد ينادي في قومه وابنه قد إيه ! شوفت سيد الخلق محمد شاف قد إيه عذاب من أهله وقومه، قابل جميع أنواع السب والقذف وصبر، ووصلت رسالته في الآخر، قولي بقا يا يوسف إنت تبقى إيه في كل إللي قولتهم، دول أقرب الخلق لربنا ومع ذلك ابتلاهم أشد البلاء وشافوا جميع أنواع الألم، يوسف إحنا مُصيرين في طرقنا، لما ربنا بيريد حاجة بنمشي فيها برضانا أو بغير رضانا إنت مجبر تتجاوز، إنت مهما عاندت فإنت في الآخر هتمشي في الطريق إللي ربنا حطك عليه، إحنا كبشر مجرد مُطيعي أوامر لخالقنا، لو عصيناه هنتعذب ولو أطعناه هناخد حظنا من الثواب، سبحانه وتعالى {إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كُن فيكون}، هو أصابنا بنعمة النسيان عشان عارف إننا منقدرش نكمل بماضينا، عارف

إننا هنعاني من حاجات بتروح مننا، ربنا عارف إن قلوبنا متعلقة بأي شيء بقوة فعشان كدة كانت نعمة النسيان من أكتر النعم أهمية ربنا كرمنا بيها، لإننا من غيرها مش هنتجاوز الألم إللي بيمر بينا، أنا مهما فضلت أكلمك عن الصبر والخضوع لأوامر الله مش هخلص، بص أنا فقدت ابن ليا قبل جوازه بيومين، حرقة قلب لا تطاق بس أدركت إنه مش غالي على إللي خلقه، هو خلقني وخلقك وخلقنا كلنا، أمر بإن حد مننا ينتهي دوره في الحياة، هنقف قدامه نقوله لا مش هتاخده؟! طب إيه رأيك لو خدتهم هفضل أعيط طول عمري! إنت هتعاند مين !!! إللي خلقك؟! يبقا لا هتشوف دنيا ولا آخرة، إنت لازم تخضع لإرادة ربنا وقدره ...

لقد كانت هذه الكلمات تصفع قلبي، وتشعرني بأنني مخطئ نوعًا ما في حق نفسي وفي حق عائلتي الراحلة بإهمالي لحياتي، لقد كانت كلمات الدكتور أشبه بجرعة من الأكسجين التي أحيت روحي، شعرت بضرورة المواصلة لأجلهم ولأجل رضا الله عني، أدركت أنني عليّ الصبر، وأنني سأكمل الحياة شئت أم أبيت، فأنا مُجبر على التعايش مع مرارة هذا الواقع، أيقنت أنني آثم في حق نفسي، وأنها لا تستحق هذا التهميش؛ فلقد خلقني الله لعبادته وطاعته لا لمعارضته وارتكاب الذنوب، وهنا أجبت الدكتور:

- إن شاء الله هتجاوز الموقف وكلها كام يوم وهاجي الكلية بس أرتب نفسي، وأتدارك إللي حصل بس.

= يا يوسف يا بني والله إنك لمجازٌ على صبرك، وأنا هستناك الأسبوع الجاي عشان نقعد مع بعض شوية.

- إن شاء الله يا دكتور ربنا يسهل.

***

نحن البشر قُدر لنا أن نعيش هذه الحياة، بعد ذلك الخطأ الذي ارتكبه أبونا آدم عندما عصا أمر ربه، فعوقب بالنزول من الجنة إلى الأرض حيث هذه الحياة المُتعبة، وحيث أراد الله أن يطبق مبدأ الثواب والعقاب؛ من أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، فما علينا إلا العبادة والاستقامة وإطاعة خالقنا إن أمر شيئًا فنحن له طواعية، إنما سقط آدم من نعيم الجنة إلى جحيم الأرض لعصيانه أمر ربه، فما علينا إلا أن نأخذ من خطأ أبينا آدم عِبرة وأن نخضع لأوامر الله، إنما نحن ضعفاء وهو القوي الذي لا يُهزم سبحانه جل في عُلاه، إنما أنا عبدٌ قد وقع عليه ابتلاء من الله ففقدتُ أعز ما أملك، وما لي إلا أن أرضى بما أراده الله لي، وأن أكون مسالمًا لاختيار الله ..

- ألو.

= إزيك يا حبيبي عامل إيه؟

- الحمد لله أنا بخير.

= يارب دايما، فطرت ولا لسة؟

- آه فطرت.

= طب يلا انزل عشان مستنياك في الجامعة.

- لا مش قادر تعبان.

= لا إنت هتيجي ولو مجتش هجيلك على البيت وأنا مش بهزر.

- خلاص جاي، باي.

= باي.

***

لقد تجاوزت شهرا ونصف دون الذهاب إلى الجامعة أو رؤية مريم، ربما لم أختلط بأحد من البشر نهائيا، وحدي تماما أو للدقه في المقابر نهارا ومع أحلامي ليلا التي انقطعت منذ يومين ولم أعد أقابلهم في منامي؛ وكأن الله كان يهون من رحيلهم شيئًا فشيئا حتى عدت إلى صوابي، لقد كانوا يحفزونني كل ليلة على مواصلة الحياة وألا أتوقف حيث رحلوا عني، لقد وعدتهم في منامي أنني سأواصل من أجلهم، وأنني لن أعصي أمر ربي، وهنا بدأت أستقبل واقعي الأليم.

نظرت في المرآة، فوجدتُ شخصا مريبًا لا يُشبهني بتاتا، لستُ أنا!!

شعرت فعليا أن الحياة قد سُحِبت مني، وأنني هالك لا محالة؛ شعر كثيف، لحيتي قاربت أن تصل صدري، عيناي مُنهكتان من البكاء وسواد الهالات يزينهما، عظام وجهي على مقربة من الخروج عن الجلد، من ينظر لي يشعر أنني قد كبرتُ خمسين عامًا، نعم يا عزيزي إنه الحزن وقهر الفقد وإنما الحياة لا تقاس بعدد السنين إنما بعدد الخيبات والسقطات التي نلناها، فأنا تخطيت السبعين عامًا من الحزن بينما أعيش في عقدي الثالث ....

وبينما كنت أنظر لذلك الغريب الذي يظهر في المرآة، تذكرت سبب ظهوره وانهمرت في بكائي، وما إن سمعت صوتا بداخلي يردد: «لا تبك علينا أبدا وإلا سنحزن، كن قويا كما عهدناك، وأكمل حياتك وارضِ ربك وإنك لمجزيٌّ»، كانت آخر رسالة من أبي في منامي، فتوقفت عن البكاء وعاودت النظر الي المرآة مرددًا: «كن قويا، كن قويا، عُد كما كنت شابا في منتصف العشرين، لا تخذلهم، لا تخذلهم، قف وأكمل كما أرادوا، هيا قف»، وهنا انتهى بكائي وقررت الذهاب إلى الجامعة ..

الجميع في الشوارع يُنظر لي بشفقة ولكنني أشعر بالأسى حيال ذلك، فأنا لم أكن لأختار حدوث ذلك، إنني عبد ذليل قد اختاره القدر ليواجه هذا الطوفان من الألم والحزن، ولكنني لم أُعر نظراتهم اهتماما، وأكملت طريقي وأنا ألتفت يمينا ويسارا وكأنني

أشعر بأن أحدًا من عائلتي يركض ورائي، وفي الناهية لا أجد شيئًا، إنها تبِعات الخروج من البيت لأول مره منذ فترة بعد اعتكافي بالمقابر والأحلام ليلا، إنها الأوهام تُطاردني أينما رحلت، وجدت هاتفي يرن إنها مريم.

= إنت اتأخرت كدة ليه يا يوسف؟

- جاي أهو الطريق زحمة بس عشر دقايق وهكون عندك.

= خلاص ماشي أنا مستنياك.

- ماشي باي.

= باي يا حبيبي.

***

لم أر مريم منذ تلك النكبة، ولم أكن أود أن أراها بعد ما حدث لي، ولكنني شعرت لوهلة أنها الأمل الذي تبقي في هذه الحياة، لربما تكون دافعا مهمًا لجعلي أواصل ما تبقى من حياتي، إنها ذلك الضوء الذي يُشع في آخر النفق، إنها آخر نفس تبقى في هذه الحياة، هكذا شعرت تجاهها.

وصلت إليها مُتأخرا حيث كانت الجامعة خاوية والهدوء يسيطر عليها، عندما اقتربت منها فعلت شيئًا مفاجئًا؛ لقد احتضنتني وظلت تبكي بشراهة، وتقول: «ليه يا حبيبي بتعمل في نفسك

كدة؟ أنا معاك، مش هسيبك، قضاء ربنا أنا حاسة بيك والله، وأنا أهو بوعدك هكون معاك لآخر يوم في عمري، يوسف أنا بحبك وهفضل أحبك للأبد». هنا سقطت دموعي وابعتدت عنها وجلسنا وقلت لها: «قضاء ربنا ولله الأمر من قبل ومن بعد، وأنا كمان بحبك». في الواقع لقد شعرت وأنا في أحضانها أن ثمة حياة ما زالت بداخلي، لقد انتابني شعور أن الوضع سيتحسن، لقد مدتني بشيء من الأمل، وهنا مسحت دموعي بيدها وقالت لي: «مش هنشوف الدموع دي تاني كفاية بقا، وبعدين حرام عليك إنت كل ما تعيط هتعذبهم». وكانت إجابتي: «حاضر إن شاء الله مفيش دموع». أخذنا الصمت لحظات وهي تتأملني وتضع يدها على رأسي وكأنني طفل صغير، ومن ثم قالت:

= إنت خسيت أوي واتغيرت يا يوسف.

- يا مريم أنا بمر بلحظات مُريبة، وأتعس إنسان على الكوكب ده هو أنا، أنا بعاني بكل الطرق.

= عارفة والله وكل صلاة من صلواتي أدعيلك إن ربنا يصبرك، وأدعيلهم بالجنة.

- إن شاء الله، وربنا يلحقنا بيهم على خير.

= طب بص بقا مش هتحلق شعرك وتفوق شوية يا يوسف أنا قلبي بيتقطع من جوة والله ومش قادرة أشوفك كدة.

- ربنا يسهل.

• شوفتي أحلى يوم في حياتي اتحول لأسود يوم ازاي! شوفتي قد إيه كنت في عز فرحي وبقول مفيش حد قدي، ودلوقتي بقول مفيش حد في تعاستي؟!

= قول الحمد لله، هنكفر يعني؟ هفضل أقولك دي إرادة ربنا مانت عارف إنه أمره نافذ ومُطاع.

• الحمد لله.

= طب بص بقا أنا عازماك بكرة على أكلة عظيمة.

• ماشي.

= على فكرة أنا زعلانة منك، إنت ماجبتليش قهوة زي عادتك، إنت بقيت بخيل ولا إيه؟؟

• لا والله نسيت، بقيتي بتحبي القهوة يعني!

= مانا لازم أحب أي حاجة إنت بتحبها، ومن ثم إنت إللي عودتني عليها.

• خلاص المرة الجاية أجيبلك كوبايتين عشان ماتقوليش بخيل.

= ههههه لا يا حبيبي بهزر، إنت أبو الكرم كله طبعا.

= أنا عايزة حاجة تانية.

• إيه؟

= الأول إنت بتحبني قد إيه؟

• إنتِ عارفة كويس بحبك قد إيه.

= توعدني إنك مش هتعيط تاني أبدا، وإنك تحاول على قد ما تقدر ترجع زي الأول، وترجع للكلية عشان إنت قربت على الشهرين مابتجيش، وفاضل على الامتحانات شهر.

- حاضر إن شاء الله هحاول، وكله هيبقى كويس.

= إن شاء الله يا حبيبي.

= يلا عشان اتأخرنا أوي.

- يلا.

= بص هرن عليك بالليل بقا.

- ماشي.

= باي يا حبيبي.

- باي.

فارقتُ مريم وأنا أشعر أن اليوم بات مختلفا عن الأمس وما مضى، هناك شيء بدأ يتحرك بداخلي، لربما أن الحياة تُولد بداخلي من جديد، أو ثمة أملٌ قد عرف طريقي، المهم أنني تحسنت نوعًا ما، هنا تأكدت أن حبي لمريم قد يُرغمني على إكمال هذه الحياة..

***

- إيه يا نجلاء هي مريم فين؟

= مش عارفة والله اتأخرت في الجامعة.

- طب رني عليها عشان نتغدى.

= حاضر.

= بتكنسل تلاقيها قربت توصل.

- ماشي.

= مش عارفة البنت دي مالها، بقالها فترة كدة متغيرة ومبتاكلش خالص وعلى طول في الأوضة.

- ليه هو حصل معاها حاجة؟

= لا بس تصرفاتها متغيرة مش زي مانا متعودة عليها.

- كلنا بنمر بالفترات دي، هتعدي إن شاء الله.

= ياريت أنا قلقانة ومش عايزه أفاتحها في الموضوع ده عشان بتزعل وتقول أنا حلوة.

وفي هذه اللحظة دخلت مريم من الباب.

- إيه يا مريم اتأخرتِ ليه؟

= معلش يا بابا المواصلات كانت زحمة بس مش أكتر.

- طب يلا غيري هدومك عشان نتغدى.

= ماشي.

دخلت مريم البيت وملامحها تختلف عن الأيام السابقة، وقد لاحظت أمها هذا التغير منذ أول نظرة لها، وعندما جلسوا للغداء باغتتها أمها قائلة:

- مالك يا مريم النهارده كدة متغيرة وحساكِ مبسوطة شوية عن الأيام إللي فاتت؟

= لا عادي يا ماما، بس كنت مركزة النهارده في المحاضرة والدكتور أثنى عليا وكدة.

- طب يارب دايما.

= يارب يا ماما.

***

وما إن عدت إلى البيت حتى عدت كما كنت قبل لقاء مريم، تعيسًا وحيدًا، أشعر بالألم وحدي، ما إن دخلت البيت إلا وتذكرت ذلك اليوم المؤلم بكل تفاصيله، وأشعر أنني أود أن أقتطع عقلي من جسدي حتى لا أتذكر ما حدث، لقد كان الأمر مأساويًا لأبعد الحدود، كنت أبكي بينما عقلي يقول لي: لا تبكِ، أنسيت ما وعدتهم به؟ أنسيت أنك قد قطعت عهدا على نفسك لهم أمام الله أنك لن تبكي، وقلبي يداويني بمريم قائلًا: هناك من سيعبر بنا إلى الحياة، ما زال هناك مُتسع لنعيش فيه، مريم هنا بالقرب، سنكمل معها الحياة. لقد كان لعقلي وقلبي الجانب الأكبر ليوقفاني عن البكاء، شعرت بالفعل أنني إن داومت على فعل هذا كل يوم بالطبع لن أستطيع أن أواصل، ربما ستقتصر حياتي على الذهاب إلى مستشفى الأمراض العقلية.

هنا توقفت للحظات وشعرت أنني أودي بنفسي إلى التهلكة، هذا ليس أنا، إنني مرغم على تغيير هذا الوضع، ربما حان وقت النهوض، ولكن هناك سؤال يؤرقني كل ليلة إلى أين الرحيل؟؟، وسرعان ما يجيب قلبي التعيس الذي لم يجد إلا مريم للتشبث بالحياة ليجيبني إلى حيث مريم، في واقع الأمر رغم إيماني وثقتي في مريم إلا أنني شعرت بالرعب حين أيقظني عقلي على حين غفلة عند إجابة قلبي إلى حيث مريم، ليطرح عقلي سؤالًا قد كانت صياغته أشبه باقتطاع تذكرة لقطار الموت، ماذا لو تركتك مريم ؟؟!! سقط السؤال على قلبي كالصاعقة، فأجابه قلبي أي رحيل تتحدث عنه؟! إن مريم تعشق الحياة لوجودي بها، إن مريم لم تكن لتقع في الحب لولاي، أي رحيل تتحدث عنه وقد وعدتني مريم بالأبدية ! أي رحيل تتفوه به أيها الأبله وقد قطعت مريم لي وعدا ألا تفارقني إلا عند انتهاء نبضات قلبها، أي رحيل قد تفعله مريم وهي تعلم أني وحدي تماما وما يوجد بالكون إلا سواها!! أتقصد أن تصف مريم بالخائنة !!!! ويحك ماذا تقول !! إن مريم أشرف من أن تفعل هكذا فعل، إنك تُريد أن تضعها في خانة من خذلوني أليس هكذا؟ إن ثقتي في مريم لا حدود لها وإنني أراهنك بحياتي أنها لن تخذلني مهما حدث، إن فكرت هكذا مرة أخرى صدقني لن يمر الأمر بسهولة فكن واعيا

فيما تطرح، شعر عقلي بالأسى تجاه قلبي لكنه صمت ورحل وقد جمع من النقد ما جمع نتيجة لسؤاله الذي وضع القلب في محل من الشك ..

- أيوة يا أحمد.

= بقولك يا يوسف أنا عازمك على الغدا عندي ولازم تيجي عشان ماما هتزعل جدا لو ماجتش.

- حاضر أنا مقدرش أزعلك إنت والوالدة.

ذهبت إلى بيت صديقي أحمد؛ الذي قد يمثل أشياء كثيرة بالنسبة لي، فهو أخ لي منذ الطفولة وقد ترعرعنا سويًا، إنه يقف بجانبي في أشد أزماتي، إنه يلازمني أينما سقطت كان عونا وأينما رحلت كان رفيقا، دائمًا أجده يشجعني، إنه ليس صديق إنه كالرحمة التي سقطت من السماء ليكون لطيفا بي ..

سلمت على عائلته وجلست معهم، وبينما كنا نتناول الطعام قالت لي والدته: «كل يا يوسف إنت مابتاكلش كويس ليه!» تذكرت كلمات أمي المشابهة على كل طعام، تذكرت كم كانت تخاف عليّ، تذكرت طريقة نطقها لهذه الحروف، وشعرت بغصة في حلقي والدموع قد ملأت عينيّ فاستأذنت منهم وذهبت إلى

الحمام، حيث لم أسيطر على نفسي، انهمرت في البكاء مرددا: «لمذا يا أمي لماذا!!!!» لقد تذكرت جلوسنا على مائدة الطعام، أبي وأمي وحمزة وخديجة، طريقتهم جميعا في تناول الطعام، لقد أخذني الحنين له بشدة، إنني أشتاق إليهم كثيرا، حاولت إخماد ألمي وتجفيف دموعي وخرجت لهم مجددا، وعاودت الأكل مجددا حتى لا يشعروا أن شيئًا قد مسني، فأنا بقدر ما تملؤني الحسرات لا أحب أن يراني أحد ما ذليلا أو مقهورا ..

انتهينا من الطعام ودار حديث بيني وبين والد أحمد:

= إيه يا يوسف أخبارك إيه في الجامعة؟

- يعني الحمد لله بدأت أرجع شوية وفي الكلية عارفين ظروفي وبيساعدوني شوية.

= طب كويس، شد حيلك في التعليم وركز، وأنا مش هشجعك يعني إنت راجل مهندس وواعي وعارف.

- آه أنا فعلا مدرك أهمية إني أكمل.

= عموما أنا ليا صديق في الكلية عندك هوصيه عليك جامد وربنا يقدم إللي فيه الخير ولو احتجت أي حاجة تعالالي على طول أنا زي والدك مش كدة ولا إيه؟

- طبعًا يا عمي وده شرف ليا ومتشكر جدا على مساعدتك.

= ليه يا ابني إنت زي أحمد بالظبط!

- ربنا يخليك يا عمي.

كلما قال أحدهم شيئًا عن عائلتي أو ذكرني بكلماتهم أشعر أن الدُنيا تضيق بي فلا تسع قدميّ، وتنتصر دموعي على وعودي، في هذه اللحظات أشعر أنه لم يكن جديرا بي أن أخرج لأتعامل مع البشر مجددًا لأن أحدهم قد يجرحني بكلماته دون قصد، إنني دائما أعيش على مخافة الذكري، أن تقع إحدى الذكريات أمامي فيغلبني الحنين ويقسو عليّ الشوق، إنني أتمنى أن يفقد قلبي الإحساس وأن تجف دموعي؛ حتى لا أقع في ذلك الانهيار المؤذي كلما تذكرتهم. يا له من مؤسف أن تتمنى اقتطاع أجزاء منك لتفقد الإحساس، لتعبر أمامك الذكري وكأنك لا ترى! كم هو مؤلم حقًا أن تتمنى الموت على أن تغمُرك ذكرى ..

خرجنا أنا وأحمد لنجلس على إحدي المقاهي وأخذنا الحديث:

- بقولك يا أحمد أنا بفكر أعمل حاجة كدة زي صدقة جارية على روحهم.

= آه والله دي فكرة جميلة.

- طب أعمل إيه فكر معايا؟

= مثلا تدفع مبلغ في بناء جامع.

• تصدق فكرة، بابا الله يرحمه ليه أراضي كتير كان شاريها، أنا هبيع منها وأبني جامع ليهم.

= آه دي هتبقى صدقة جميلة جدا والحديث الشريف بيقول: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». وتقريبا الشروط التلاتة موجودين، فوالدك ووالدتك ونعم العلم، وإنت هتعملهم صدقة جارية، وكمان هتدعيلهم.

• آه ربنا يرحمهم جميعا ويلحقنا بيهم على خير.

= اللهم آمين.

= إلا بقولك كلمت مريم؟

• آه قابلتها من يومين.

= طب إيه الدنيا؟

• لا كله تمام.

= أنا عارف إنك بتحبها أوي وإنها عامل مهم في الوضع ده.

• فعليا؛ مريم دلوقتي بقت كل حاجة يعني مش لاقي سبب مقنع للحياة غير وجودها، بصبر نفسي بيها والله، إنت مش متخيل أنا بحبها قد إيه، وتعلقي بدأ يزداد أكتر مع شعورى المؤكد إنها الحياة فعلًا.

= ربنا يجمعكوا على خير إن شاء الله.

- إن شاء الله.
- أنا هقوم أروح بقا عشان من ساعة ما سبت بيت جدتي وأصريت أعيش لوحدي في البيت وهي زعلانة وبتجيلي كل كام يوم وزمانها جاية كمان شوية.

= خلاص ماشي.

وما إن وصلت البيت حتى وصلت جدتي واحتضنتني طويلا وقالت لي:

= لسة مصمم مش هترجع تقعد معايا بقا؟
- والله يا تيتا أنا هنا بحس بيهم أكتر وريحتهم موجودة على طول، أنا مرتاح هنا صدقيني.

= ماشي وأنا هسيبك على راحتك.
= أكلت إيه بقا النهارده؟
- كنت معزوم عند أحمد صاحبي ولسه داخل حالا.

= طب الأكل كان حلو؟
- آه كان جميل.

= ورجعت الكلية وأخدت بالك من المذاكرة كويس؟
- آه يا تيتا متخافيش.

= طب أنا هبات معاك النهارده وهتعملي عشا بقا.

- هههه بس كدة من عيوني يا ستي.

لقد قضيت ليلة تُعد أجمل ليلة عشتها في وسط هذا الظلام الحالِك، شعرت أن أمي قد عادت إلى الحياة لأنها قد نبعت كل شيء من جدتي، وتشبهها في كل شيء، لقد كانت ليلة مرِحة، حاولت جدتي فيها أن تحد من وطأة حزني وقد كان، لقد شعرت بالدفء وهي تقبلني وتروي لي إحدي حكايات أمي الساذجة في طفولتها، وبعد أن أنهت هذه الحكاية قد غمرني أنا وهي البكاء وشعرنا بالأسى في نهاية هذه الليلة ..

لقد كان يومًا يعجُ بالمشاعر المتضاربة؛ فرح وبكاء، مرح وحسرات، ضحك وأحزان، ولكنه كان يومًا جيدًا عن سابقيه، ربما أهم ما يميزه أنه خالٍ من مريم؛ فأنا لم أحدثها إطلاقا لانشغالي مع جدتي، وغلبني النوم في النهاية من كثرة التعب ..

استيقظت على صوت هاتفي فوجدتها مريم، أجبتها والنعاس يغلبني:

- ألو.

= صحي النوم يا عم يلا عشان تروح الكلية.

- أنا مانمتش كويس.

= فوق يا عم إنت هتستعبط هتتأخر عن محاضراتك.

- ماشي ماشي.

= مفيش ماشي هفضل معاك على الخط لغاية ما تقوم تغسل وتفوق.

- ياستي جاي.

= لا قوم.

- حاااضر.
- خلصت أهو ونازل.

= طب لما تخلص محاضرات رن عليا.

- ماشي.

= باي يا حبيبي.

- باي يا حبيبتي.

أخبرت جدتي أنني ذاهب إلى الكلية، وقالت لي إنها ستعود إلى بيتها وستأتي لاحقا لزيارتي، كنت متأخرا بعض الوقت عن محاضرتي، ولكن الدكتور على غير عادته سمح لي بالدخول، وانتهيت من المحاضرة وذهبت لمقابلة مريم...

***

وبعد مرور شهور على ذلك اليوم اللعين، شعرت أن ذلك الضغط

الملقى على كاهلي قد بدأ يخف رويدا رويدا، شعرت أنني أسير في الطريق الصحيح، لقد بنيت مسجدا كصدقة جارية لهم، وتقبلت قضاء الله وقدره، وأدركت حتمية مواصلة الحياة، وقد وجدت مريم بجانبي قد ساعدتني على إكمال الطريق، أصبحت هي أبي وأمي وإخوتي وحبيبتي وكل شيء. لقد أصبحت مريم هي الحياة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وبدأت تتوالى الأيام وتنقضي حتى وصلنا إلى درجة الجنون في الحب والثقة العمياء بيننا في كل الأمور، لقد وجدت فيها الحب والعائلة والوطن والكون كله، لقد كانت مُتنفسي الوحيد في الحياة.

وعلى الجانب الآخر كان صديقي أحمد في مأزق ما:

= إنت على طول كدة مابتسمعش غير لنفسك وبس؟!!

• إنتِ إللي دايما بتكرري أخطائك.

= إزاي وأنا دايما أقول حاضر ونعم وماشي وفي الآخر بكرر أخطائي!!

• بصي يا ندى أنا آه بحبك وكل حاجة، بس إنتِ عارفة إن قواعدي ماتتكسرش وده في أي ظرف من الظروف.

= أنا بقولك إن هو طلب مني حاجة وأنا رديت عليه بأدب وانتهى الحوار، من ثم هو صديق ومحترم!

• لا أنا قولتلك لو ابن عمك متردیش علیه إلا بإذني وده مش تعقيد بس أنا لازم أبقى عارف كل حاجة ومفيش حاجة تعمليها

من ورايا لإنك عملتي الغلط ده قبل كدة وأنا حذرتك وبردو مفيش فايدة، تقدرى تقوليلي ده بقا ذنب مين؟

= بردو مش هتسمعني وهتفضل معاند كده زي عادتك.

- بصي يا ندي أنا زهقت من كتر مانتي بتكسري كلامي ومش عارف نهاية الحوار ده هيبقى إيه!!

= أحمد شوف إنت عايز توصل لإيه؟! عايز تبعد قول، عايز تخاصمني قول، اعمل إللي يريحك.

- أيوة هي دي ردود كل مرة أنا والله تعبت جدا وقلبي تعبني، أنا مش عايز حاجة أنا هروح أنام وخلاص، تصبحي على خير.

= براحتك يا سيدي وإنت من أهله.

إن أسوء ما في علاقات الحب هي العقبات التي تتخلها وتؤدي إلى شروخ كبيرة جدا قد تجعلها تنهار في النهاية، ما يضع العلاقات في مأزق حقًا هو العناد الذي يتولد بين الطرفين وهو من أكبر الأسباب في نشأ العقبات، وربما يكون أحد الطرفين أنانيًا بعض الشيء فيؤدي ذلك لشعور الطرف الآخر بالإهمال وعدم أهميته وأهمية حبه، إن الحب يحتاج لطرفين صادقين كليهما خالٍ من الأنانية، يُدركا معنى الحب وقيمته، ويقدسا الحب، إن الحب يحتاج لطرفين يصونانه، يخاف كلاهما على الآخر، لا يهتما للبشر وسعيهم الدؤوب في إفشال الحب ووضعه في صورة المُدنسات؛

فالحب أشرف من أن يسقط بين أولئك الذين لا يقدرونه، وأولئك الذين يجهلونه، إن الحب بعيد كل البعد عن تلك الترهات التي تضعه في خانات المؤلمين، إن بعضنا يفشل في الحب لأحد السببين إما أخطأ في الاختيار أو أخطأ في الاحتفاظ..

عندما قابلني أحمد وروى لي ما حدث أشفقت عليه كثيرا وشعرت بخيبة أمل تجاهه ولم أستطع أن أقدم له نصيحة مهمة في الأمر، في الحقيقه لم أتعرض لمثل هذه المشادات الساخنة مع مريم، لقد ساعدتنا الظروف في أن تكون العلاقة هادئة وناجحة إلى حد كبير، ولكنني قلت له أن يتحلى بالصبر والهدوء في اتخاذ القرارات وأن يعاود المحاوله مجددا معها ويحذرها من كسر قواعده مرة أخرى، وأن هذه آخر فرصة لها، كل ما أعلمه عن أحمد وندى أنها يحبان بعضهما منذ فترة تتجاوز الأربع سنوات، وقد اقتربا من أن ينهوا العلاقة بنجاح؛ لأنه قال لي بأنه سيتقدم لخطبتها قريبا، ولكن علاقتهم في الآونة الأخيرة ملئية بالمشاكل وهو ما يزعجه، ولكنني أقنعته بأن يعطيها فرصة أخرى لأنه ليس من السهل أن تقضي على علاقة لخطأ ما؛ فإن الحب ليس بهذه السهولة لندفنه لمجرد أخطاء فجميعنا بشر، وعلينا بالتجاوز كلٌ عن بعضه الآخر حتى تنجح العلاقة، فنحن لسنا بملائكة حتى لا نخطئ، جمعينا عرضة للخطأ؛ ولذلك علينا بالمسامحة والتجاوز، وفي النهاية تقبل

أحمد الأمر وقرر العدول عن فكرة مخاصمتها والابتعاد..

= حبيبي إللي وحشني فينه!

- موجود يا حبيبتي هروح فين؟

= إيه إنت ف البيت؟

- آه لسة داخل من شوية.

= طب أكلت ولا لسة؟

- لا مش جايلي نفس.

= ليه بس يا صغنوني؟

- والله يا ستي أحمد صاحبي غمني زعلان هو وندى حبيبته على حاجات تافهة جدا وخايف بطريقتهم دي يضيعوا من بعض.

= زعلانين ليه بس هم كل شوية كدة!!

- آه بيقول مابتسمعش كلامه وبتكسر قواعده كتير.

= يادي النيلة على القواعد، طب وعمل إيه؟

- اتخاصموا وأنا قولتله يرجع يكلمها ويديها كمان فرصة.

= لا شطور يا حبيبي.

= هو أنا مش وحشتك ولا إيه!

- إزاي بس والله وحشتيني موت موووت.

= واضح واضح من الصبح مارنتش يعني.

- مانا قولتلك كنت مع أحمد مش مصدقة ولا إيه؟

= لا يا حبيبي مصدقه طبعًا.

- طب أنا بقا عايز أشوفك بكرة.

= بس كدة، من عيوني نتقابل في كافيه ولا نتغدا مع بعض.

- نتغدا وبعد كدة نقعد في كافيه.

= خلاص بكرة العصر رن عليا.

- ماشي يا روح قلبي.

= تصبح على خير يا صغنوني.

- وإنتِ من أهله يا كل حياتي.

لا يكتمل اليوم إلا بمحادثتها، وإن لم يحدث هذا لظرف ما أشعر أن شيئًا كبيرا ينقصني، فكل ليلة لا بد أن أنام وأخر صوت أسمعه هو صوتها، ولا تري عيناي الصباح إلا وقد تكون هي أول صوت أسمعه، فمنذ أن أصبحت وحيدا تملكني إحساس أن مريم أصبحت كأمي؛ أنام على صوتها، أصحو عليه أيضا...

بطبيعة الحال ومنذ رحيل عائلتي عني وهناك عادات في حياتي لا تتغير أبدا كدخولي لغرفة كلٍ منهم والتحدث معهم وقراءة القرآن على روحهم، لا أستطيع أن أصف كم الألم الذي أتذوقه قبل نومي كل ليلة، ولكنه ألم له مذاقه الخاص، إنه ألم أحبه، ألم أشعر أنه يكملني، ألم يبدو وأنه أصبح جزءًا مني، إنه يشبه استئصال جزء منك مؤلم جدا ولكنك تحب هذا الألم لأنك إن لم

تستئصله ربما ستنتهي..
إنني أشعر أنني أصبحت أعاكس الواقع، فما يؤلم الناس يُريحني وما يريحهم يؤلمني وكأنني لا أشبه البشر بتاتا..
هكذا هي حياتي، تذوق الألم على ذكرى رحيلهم كل يوم وكأنني تعهدت لهم على أنني لن أنام قرير العين أبدا بدونهم، وهناك أيضا ما تبقى من يومي ملك لمريم وحبها..

= إيه يا بشمهندس صحي النوم إنت لسة نايم ده كله؟
- آه مانا فضلت صاحي لغاية الفجر عشان أصلي وبعدها نمت.

= طب يلا قوم اتشطف والبس عشان أنا لبست ومستنياك تجهز.
- حاضر يا حبيبتي.

قد عبرت إحدى الجمل أمامي ذات مره ولكني لم أعرها أهمية وهي: «أن الحب هو الاهتمام». الآن أدركت معنى الحب والذي يتمثل في الاهتمام، إن الاهتمام يتمثل في أجزاء بسيطة مثل أن يوقظني أحدهم في الصباح ليقول لي صباح الخير، ربما يتمثل الاهتمام في قول أحدهم لي لا تتأخر حتى تفوتك إحدي محاضراتك، إن الاهتمام تشعر به في أجزاء صغيرة جدا، ربما أيضا اهتمام أحدهم بتفاصيلك الصغيرة جدا، ربما في اهتمامه بنوع

القهوة الخاص بك، الموسيقى التي تحبها، إن الاهتمام يوازي في معناه الحب، إن أدركت أن أحدهم اهتم بك فلا داعي لأن يقول لك أحبك، ربما قد سردها لك مسبقا في إحدى مرات إهتماماته الصغيره جدا بتفاصيلك ..

***

= حمد الله على السلامة على طول متأخر.

- معلش يا حبيبتي أنا آسف!

= طب هناكل إيه بقا؟

- أنا نفسي في الفراخ المشوية مع الرز البسمتي وإنتِ؟

= طبعًا زيك يا حبيبي.

بالطبع يغمرني الفرح عندما توافقني الرأي في كل شيء، حتى ذلك الطعام الذي لم تكن تحبه أصبحت تعشقه من أجلي، إنها فتاة أحلامي التي تجعل أوقاتي معها وكأنني في الجنة، وبعد انتهائنا من الطعام ذهبنا لنتحدث سويًا في أحد الكافيهات..

- مريم.

= يا عيون مريم

- أنا بعشقك.

= طب مانا بموت فيك وبعشق كل حاجة فيك.

- في مفاجأة عايز أقولهالك.

= إيه يا عيوني قول بسرعة؟

- أنا قررت إني هاجي أتقدم آخر السنة بعد ما أخلص خامسة.

= إنت بتهزر صح !!

= بجد والله هتيجي تخطبني؟!

- آه والله هاجي أخطبك.

= ياربي أنا مش مصدقة، قلبي هيطير من الفرحة والله.

- لا صدقي يا حياتي، هو أنا أساسا مليش غيرك وحياتي هي إنتِ وأنا قررت إن ده الوقت إللي هنتجمع فيه بقا عشان مابقتش قادر أعيش بعيد عنك لحظات.

= والله ولا أنا يا حبيبي أخيرا هنحقق حلمنا بقا ونبقى مع بعض على طول.

- إن شاء الله يا حبيبتي.

= إنت فرحتني جدا جدا يعني والله وهروح مبسوطة جدا.

- ربنا يقدرني يا حبيبتي وأفضل أخليكِ مبسوطة دايما كدة.

= يارب يا قلبي إنت.

- يلا بقا روحي عشان اتأخرتِ.

= ماشي يابو عيالي بقا.

- هههههههه ماشي حلوة الجملة دي.

= باي يا حياتي.

- باي يا نور عيني.

***

أصبحت ابتسامة مريم هي أهم شيء في حياتي، كل ما أسعى إليه هو رسم الابتسامة على وجهها، فأنا لا أملك إلا هي في هذه الحياة وهي أعز ما أملك، يمكنني القول بأنني يمكنني التضحية بأي شيء في سبيل ذلك، إنها استحوذت على قلبي كليا وسرقت عقلي وأفكاره، أدركت كم السعادة التي تملكتها عندما أخبرتها بقرب جماعنا أخيرا، لقد رأيت في عينيها كل الفرح والحب والود، لقد غمرتها السعادة وطفت على وجهها، إنني أتمنى أن يمر هذا العام في لمح البصر لأفوز بساحرتي وسارقة أعضائي؛ لأنهي ذلك الفراق اللحظي الذي يتم بيننا، لتملأ وحدتي، لنجلب أطفالا تُشبهنا، نعم أريد أن يأتي سريعا ذلك اليوم الذي سنبتعد فيه سويًا عن الناس ونتوارى عن عيون الحساد، إنه وكما يقولون يوم المُنى، أن أنام في أحضانها وأصحو على ملامح وجهها، أن أعود للبيت مليئًا بالتعب لتُفرغني منه بقبلة، أن تعبر أمامي ذكرى عائلتي فأجدها بجانبي تواسيني، إنني أريد فقط أن تكون بجانبي حيث إن آلمتني الحياة في لحظة ما أشرب كأسا من سواد غينيها ليهون عليّ الألم، إنها الحلم الذي لا أريد له أن ينتهي، حلم أحب أن أبقى

فيه حتى الفناء، لو أتى أحد ما ليخبرني أن ما أعيشه معها مجرد وهم في الخيال لتمنيتُ أن أقضي حياتي في تلك الأوهام، إنني على أتم الاستعداد للمجازفة بكل ما أحوز رغبة في الوصول إليها، لربما قد وقعت في الحب بسببها هي فقط، أكاد أقسم أن لو أحد آخر لما وقعت في الحب؛ نعم فهي مختلفة تماما عن البقية، مُتفردة، وحيدة في كل شيء، لا مثيل لها، بإمكانها ترويض كبريائي بنظرة، إن بإستطاعتها أن تأسرني بكلمة، إنها قادرة على إسقاط عنادي بكلمة، إنها وبكل السبل قادرة على أن تختطفني لعالمها الخاص بإحدي ابتساماتها الساحرة، لم أكن أؤمن بالسحر حتى طفت هذه الفاتنة على حياتي فسحرتني أنا وقلبي بنظرة واحدة، ومنذ تلك النظرة وأنا حبيس عينيها وأسير حبها..

***

كانت هناك مشكلة يعلمها الجميع عني وهي أنني أميل للاكتئاب وذو مزاج حزين في أغلب الوقت، ولكن قد انقلبت كل هذه الصفات رأسا على عقب منذ ظهور مريم، أو لنقل منذ وقوعي في حب مريم. لقد كان لقاؤها بمثابة ولادتي من جديد، شخص مغاير كل شيء يختلف عن سابقه، تغير كلي في شخصتي؛ لقد أصبحت أشبهها وهي كذلك، كنت أشعر أننا خلقنا لنكون هكذا جزئين متقاربين متلاحمين، كانت علاقتنا أقرب لأن تكون علاقة مكتملة

الأركان ففي بعض الأحيان كنت أشعر أنها كأمي في خوفها علي، كأبي في نُصحها الدائم لي، كزوجتي في كل شيء من حنانها إلى حبها، وقد كان ذلك الشعور ينتابها من ناحيتي. بإمكان أي شخص يعرفنا أن يصفنا بأننا أصحاب علاقة ناجحة تماما؛ فنحن نتحدث كل ليلة، وعندما أقابلها يضحك قلبي وتُرسم ابتسامة على وجهي وأشعر أنني مغيب عن الدنيا تماما وساقط فقط في عينيها، عندما أقترب منها تنتابني رعشة توضح مدى السعادة التي تستوطنني، كل شئ يؤكد بأننا على مقربة من وضع آخر أحجار علاقتنا وهي الزواج؛ نهاية مستحقة لحب عظيم لم تَشُبه شائبة ..

كنت جالسا شارد الذهن في التخطيط لذلك المستقبل الغامض، وكيف سأمضي تلك الحياة التي أتلفها رحيل عائلتي، ولكن لربما أفاقني من شرودي هذا تلك التي تحاول انتشالي من هذه الحياة التالفة، مريم تتصل..

- أيوة يا حبيبتي.

= أيوة يا روح حبيبتك.

- معاك يا حبيبي.

= كنت عايزة أستشيرك في حوار كدة.

- قولي يا حبيبتي.

= طب فوق وصحصح عشان حوار طويل بس هو ميخصناش.

- طب قولي يمكن أفيدك.

= ماشي.

= أسماء صاحبتي بتحب واحد بقالها كام سنة وبيحبوا بعض جدا يعني بقالهم يجي أربع سنين بس هو ماديا مش مؤهل إنه يخطبها دلوقتي، وكمان هو نوعًا ما أقل منها في التعليم شوية ومن يومين إتقدملها ظابط وأهلها عاملين يضغطوا عليها عشان توافق وهي جت تسألني تعمل إيه، إنت إيه رأيك؟

- ترفض طبعًا، هو حب يوم ولا يومين دول بقالهم أربع سنين!! وبعدين هو الحب بيتعوض بالساهل؟! الحب ده عمره ما يتعوض ولا بكنوز الدنيا ولا بالتعليم حتى، الحب ده مابيتوهبش بالساهل، ده فيه تعب ومعافرة وإصرار، الحب ميترميش بالسهولة دي، مش عشان شوية فلوس ولا تعليم، لازم تصبر وتستناه وتعرف أهلها وهو أكيد مش هيخذلها وهيحاول. الإنسان يكسب حب شخص لو هيخسر قصاده الدنيا وما فيها. الحب مش كلمة تتقال، الحب ده تضحية سنين، بنخسر حاجات كتير جوانا عشان الحب، إحنا للأسف ساعات بنخسر كرامتنا علشان الحب، نخسر قرايبنا عشان الحب، نخسر دنيتنا عشان الحب، إحنا بنخسر كل حاجة تقريبا في سبيل الحب، قوليلي إزاي نبيعه بأرخص الأثمان!! نبيعه بشوية فلوس و شوية مظاهر، شوية حاجات ممكن تروح في لحظة، بس عارفة إيه إللي عمره ما هيروح؟ حب شخص ليك

من جواه عمره أبدا ما هيزول، أي شيء تاني ممكن يزول. انا لو خيروني بين إني أفوز بشخص بيحبني، ولا أعيش حياتي في نعيم ودلال والله لأختار الشخص إللي بيحبني، أصل الشخص ده هو إللي لو إنت زعلان قادر يبسطك، لو مجروح قادر بكلمة منه يداويك، لو مضايق قادر في لحظة يفك ضيقك، وأراهنك لو إنت مخنوق ومجروح ومقهور وعايش في النعيم والدلال ومع شوية المظاهر هتفضل كدة مقهور مهما عملت بشوية الشكليات إللي معاك، كل شيء بيروح إلا الجوهر هو إللي باقي..

= آه عندك حق.

- بأمانة قولتيلها إيه؟

سكتت لبرهة حتى تجيب عن هذا السؤال وردت بكلمات يملؤها التقطع:

= لا أنا قولتلها ارفضي.

أدركت من كلماتها أنها تكذب وأنها حثتها على أن توافق على بيع الحب وهنا أجبتها:

- أيًا كانت إجابتك ليها هي هتقرر، ومع مرور الزمن هتعرف إيه القرار الصح فعلًا، وأتمنى تختار الحب على الشكليات، وفي العموم أي بنت هتختار الشكليات على الجوهر هتدمر حياتها والقدر هيقتص منها..

= آه طبعًا.

بعد انتهاء هذه المكالمة شعرت بمشاعر متضاربة تجاه مريم، وفكرت مليا؛ كيف لمريم أن تحثها على فعل هكذا إلا وقد وضعت نفسها مكانها؟! فإن رشح أحد اختيارًا ما لآخر فهذا ينم عن اختياره لنفسه أيضا في نفس الوضعية، أنا متأسف ومتألم جدا لما فعلته مريم، ربما لن يرى النوم طريقه إلى عيني في هذه الليلة، أنا لا أصدق أنه ما زال أحد في هذه الحياة الفانية يفضل المظاهر والشكليات على الحب والجوهر! أنا لا أصدق أنها قد اختارت هذا الاختيار، ولكن شعورى من كلماتها المزيفة أنها قد فعلت وخيبت ظن قلبي، في الحقيقة أنني أدعو أن يكون شعورى قد خانني في هذه اللحظة وأنها فعلت العكس، ولكنني في ذات الوقت مدرك تماما أن الشعور لا يخون أبدا، ولكن ربما أخطأت وستعود لرشدها بعد كلماتي القوية التي أطلقتها في وجهها..

في أحد الصباحات قررت الذهاب لزيارة جدتي، فلقد مر وقت طويل لم أرها، وعندما كنت جالسا في أحد الميكروباصات شارد الذهن؛ قد التقطت أذناي عن غير عمد مكالمة لأحد الشباب يجلس بجانبي ويتحدث بصوت خافت ومنفعل وقد التقطت أذناي المكالمة، وقد شدت انتباهي حيث كانت تتضمن بعض

الجمل التي سرقت اهتمامي؛ فلقد كان يقول لأحدهم في الهاتف:

- «أعمل إيه أنا عملت إللي عليا معاها، حاولت بدل المرة ألف، وبشتغل ١٢ ساعة في اليوم وبحاول على قد ما أقدر أحوش فلوس عشان نتجوز، وإنت شايف مبنامش، وهي عماله تضغط عليا وتقولي العرسان بيجوا يتقدموا كتير وجاهزين، إنت مش هتخلص بقا !! أنا والله تعبت ومش قادر في نفس الوقت أفرط فيها، أنا بحبها جدا وبعمل المستحيلات عشان أوصلها، بس من الواضح كدة إنها زهقت وهتوافق على عريس قريب، ومش عارف أعمل إيه؟! أنا في ضغط رهيب..!!»

لقد وقعت هذه المكالمة على قلبي حتى شعرتُ أنه صدع لها..

ما الذي يحدث !!

هل أدركتنا الأنانية إلى هذه الدرجة؟! لقد فقدنا ما يميزنا عن بقية الخلق، لقد فقدنا مشاعرنا وأحاسيسنا، إذن ما الذي يميزنا عن البقية؟! لقد فقدنا المشاعر الباهية التي يحملها الحب، لقد أغرتنا ملذات الدنيا عن قدسية الحب، اللعنة كل اللعنة على أولئك الذين أوهمونا بأنهم أهلا للحب، بينما هم يتوارون خلف المصطلح ليصلوا إلى مبتغاهم الأسمى وهو مصلحة الذات، لقد مزقت الأنانية كل ما هو جميل في الحب، أصبح الحب لا يعني

التضحية ولا يعني الاهتمام؛ إنما الحب في مجتمعنا أضحى يمثل حفنة من النقود، أوراق لا معنى لها تحدد مسار الحب، إن امتلكت ما يكفي من تلك الأوراق فزت بالحب، وإن لم تمتلك خسرته. أهو ذنب الحب؟!! أم إنه ذنب هؤلاء البشر الذين أقنعونا مرارا وتكرارا أنهم يعلمون الحب وما يعنيه، وفي النهاية نكتشف أنهم معدومي الشعور لا يهتمون إلا لمصالحهم، إنهم أغرقونا في كذبهم عندما قالوا لنا مهما كان المقابل لن نبيع الحب، ونكتشف في النهاية أنهم باعونا مع أول حفنة كافية من النقود! إنني أشعر بالأسى تجاه الحب، لأنه ثمة من دمروا معانيه ولطخوا نقاءه. إنني أقدم اعتذاري للحب عن أولئك الذين باعوه مقابل تلك الأوراق التي معنى لها ولا قيمة....

***

إذن ما الذي على شاب في منتصف العشرين أن يفعله؟
يؤسفني أن مجتمعنا بات أقرب لأن يحول تلك الأنثى التي نالت تقديرا كبيرا وواسعا في الإسلام إلى مجرد سلعة، علينا أن نفيق مما وصلنا إليه.
لقد بدأت أشعر أن مجتمعنا بات كأسواق النخاسة كما كنا في الجاهلية؛ تشعر وأن كل أنثى لديها سعرها الخاص بها، فإن أردت الفوز بها إذن فأعمل بجد لتجمع تلك الأوراق التي لا معنى لها

لتفوز بها! وإن لم تمتلك سعرها ربما عليك أن تبحث عن أخرى ذات سعر أقل، والحب؟!!

أي حب عزيزي تتحدث عنه في هذا الزمن! لم يعد للحب مكانا في مجتمعنا، لقد بدلنا ذلك الحب بتلك النقود الورقية؛ فالمزيد منها سيمنحك الحب. عليك أن تدرك ما وصلنا إليه، ليس بوسعك أن تقلل مطالبهم بالحب، لقد بات حتميا عليك أن تدفع ذلك السعر المُعلن عليها لتفوز بكلاهما هي وحبها، وإن لم يسعك امتلاكك للسعر فيحزنني أن أخبرك أنك خسرتها.

وإن كانت تحبني؟!

أنت تسأل سؤالا تعرف إجابته مسبقًا، أنت تعلم أن الحب الصادق أصبح نادرا كندرة مُدركي معانيه، وصدقني إن وجدته ربما سترغمك عائلتها على أن تدفع السعر المحدد لها -إلا من رحم ربي- إننا أصبحنا نحارب جميع الشباب حتى أصبح جميعهم يخافون أن يقعوا في الحب، كل ما أدركوه هو أن يذهبوا ليجمعوا تلك الأموال ليدفعونها مقابل إحداهن. لقد قاربنا أن ننهي الحب من الوجود بتلك الأنانية التي تأكلنا بداخلنا...

***

وصلت إلى جدتي وفي نفسي حسرات لاذعة، وصلت إلى جدتي وأنا أتالم على ما وصل إليه مجتمعنا، أشعر بأن ضغط الدم قد

ارتفع من ذلك التفكير المؤلم فيما يدور في واقعنا المرير، قدماي لم يكونا قادرين على حملي بتاتا، عيناي مُرهقتان جدا، ونفسي تشعر بالأذي. ما إن وصلت إلى جدتي حتى تركت جسدي يستريح من عناء الطريق ومن مهالك التفكير، وبعد مرور ساعات من النوم الذي كان بمثابة الهروب من ذلك الواقع المرير استيقظت حيث جلست مع جدتي لنتحدث سويًا..

= إنت وحشتني أوي يا يوسف.

- وإنتِ كمان والله يا تيتا وحشاني جدا جدا.

= كنت هجيلك لو مكنتش جيت على فكرة.

- هو أنا أقدر أتاخر عنك يا أغلى الناس؟

= ربنا يخليك يا يوسف وافرح بيك في أقرب وقت قبل ما أموت بقا.

- بعد الشر عليكي يا تيتا هو أنا ليا غيرك بس!

= والله ما صبرني في الدنيا دي غيرك إنت يا يوسف.

- وعلى العموم هتفرحي بيا قريب.

= لا والله بجد هتخطب بجد؟

- آه إن شاء الله الصيف الجاي.

= ومين سعيدة الحظ دي بقا؟

- بنت جميلة جدا في كلية علوم وبنت ناس وبنحب بعض بقالنا سنتين أهو.

= طب أنا لازم أشوفها بقا.

- بس كدة، لحظة معايا صور ليها.
- أهي يا تيتا.

= بسم الله ما شاء الله يا يوسف قمر، أهو أنتو الاتنين قمرات ولايقين على بعض، هتجبولنا شوية عسلات.

- إن شاء الله يا تيتا.
- عارفة يا تيتا؟

= إيه يا حبيبي؟

- إن شاء الله هخلف ولدين وبنتين وهسميهم على أسماء بابا وماما وإخواتي الله يرحمهم؛ محمد ورجاء وحمزة وخديجة.

= ربنا يعطيك يا بني ويكرمك ويخلفك بالذرية الصالحة.

- اللهم آمين يا تيتا.

كم هو مؤلم أن نعيش على الذكرى، إن مرور الذكريات أمامنا يُضاهي إشعال أحدهم للنيران بقلبي، كل شيء يشتعل بداخلي، نار الحنين ونار الاشتياق ونار التلهف، أصعب ذكرى قد تحملها بداخلك هي التي تكون لأولئك الذين رحلوا عن الدنيا، فأنت على ثقة تامة بأنك لن تستعيدهم، متأكد من أنه لا فائدة من الذكرى سوى جعلك أقرب لأن تهشم رأسك حتى تقع منها تلك الذكريات المؤلمة، أقرب لأن تقبض بيديك على قلبك حتى تُخمد

نيران الشوق به، أقرب لأن تكتم أنفاسك حتى تذهب لمقابلتهم. إنه أقسى نوع من الذكريات أن تحن لمن رحل ولن يعود، لمن دُفن ولن يخرج مرة أخري؛ فأنا ما زلت أعيش على ذكرى رحيلهم وسأعيش حتى الفناء. إنني أسير ذكرى رحيلهم عني وسأظل أسيرا حتى ألقاهم.

قضيت يومًا طيبًا مع جدتي التي عندما أجلس معها أشعر وأنني جالس مع أمي -رحمها الله- إن جدتي هي آخر ما تبقى لي من رائحة عائلتي، عندما يأكلني حنيني لأمي أركض إلى حضن جدتي حتى يهدأ شوقي. انتهي اليوم وعدت في آخره إلى البيت حيث استمعت لبعض الموسيقى الهادئة وخلدتُ إلى النوم.

وفي الصباح وجدت هاتفي يرن فأجبتُ حيث كانت مريم:

- صباح الخير يا حبيبتي

= صباح إيه بقا وإنت إمبارح طول اليوم ماعبرتنيش، على فكرة أنا زعلانة أوي أوي.

- إيه بس يا حبيبتي مالك في إيه، أنا كنت عند تيتا والله!

= يعني عشان كنت عند تيتا تقوم ماتكلمنيش خالص! هي تيتا تنسيك حبيبتك يعني كدة!

- لا والله أول ما روحت عندها سرحت في النوم وصحيت

أكلت وقعدنا نتكلم شوية وكمان كنا بنتكلم عليكِ.

= عليا أنا؟! قولتوا إيه ها قولتوا إيه؟

- وريتها صورتك وقولتلها إننا هنتخطب الصيف الجاي فرحت جدا، وبتقول إنك قمراية.

= طبعًا يا بني أي حد بيقول عليا كدة.

- والله!!
- طب إيه رأيك إنك مش قمر وعادية.

= كدة يا يوسف كدة؟ طب والله ماشي.

- بهزر يا مريومتي ما إنتِ عارفة.

= هزر يا خفيف هزر.

- بقولك يا مريم ما تيجي معايا مرة نبقا نزور تيتا عشان تشوفك وتشوفيها.

= ياريت والله أنا نفسي أوي يعني.

- خلاص المرة الجاية نروح مع بعض.

= إشطا.

= يلا بقا عشان عايزة أشوفك عشان وحشتني جدًا يعني.

- ماشي هاخد شاور والبس وانزل.

= ماشي بسرعة يا حبيبي.

- حاضر يا عيوني.

***

الحب لم يعُد يكبر بيننا؛ إنما الحب قد وصل إلى خط النهاية؛ أعني أنه مكتمل الأركان، كل شيء بيننا يوحي بأننا قد شارفنا على الوصول إلى حد الجنون في الحب، كلانا يشعر أنه فاقد لجزء منه إذا لم يُحدث الآخر، اللهفة التي يُبديها كلانا لرؤية بعضنا الآخر، خوفها غير الطبيعي عليّ وكذلك خوفي عليها، اشتياقي المُنقطع النظير حتى وأنا معها، إنما نحن تخطينا فكرة أننا نحب بعضنا بل وصلنا إلى «أننا غرقنا في بعضنا الآخر، سقطنا بكل مشاعرنا في بعضنا، كلٌ منا قد ترك قلبه لدي الآخر، كلانا أحكم قبضته على عقل الآخر، وكأننا هاربان من العالم، لا يحيط بنا شيء، نحن محاطون بأنفسنا فقط والحب يُحاصرنا من جميع الجهات، نحن على حافة جنون العشق».

***

= أيوة يا يوسف إنت فين؟

- أنا في البيت يا أحمد.

= طب تعال قابلني أنا في الكافيه إللي بنقعد فيه.

- ماشي هلبس وانزل.

يا ترى ما الذي يُرديني فيه أحمد !! أسرعت وذهبت له سريعا.

- إيه يا أحمد فيه حاجة ولا إيه؟

= لا، اقعد كنت عايز أستشيرك في حاجة بس.

- قول أنا سامعك.

= دلوقتي أنا ضغطت عليهم في البيت عشان ييجوا معايا أتقدم لندى، وأبويا عمال يقولي استنى أما تخلص آخر سنة في الكلية والجيش، وأنا خايف حد يتقدملها، المهم أبويا وافق في الآخر، بس خايف أهلها يرفضوا عشان أنا مش جاهز.

- لا روح وإن شاء الله هيوافقوا طالما هي موافقة وبتحبك.

= إنت شايف كدة؟

- يا أحمد عشان خاطر الحب اعمل أي حاجة، ضحي وحاول وعافر عشان تكسب الحب إللي ضيعت فيه سنين، ماتخلهوش يروح هدر.

= أنا قولت كدة بردو إحنا هنروح يوم الجمعة.

- طب ربنا يسهل وإن شاء الله خير.

= إن شاء الله.

رغم أن موقف أحمد صديقي ضعيف إلا أنه وجب عليه التضحية والمحاولة، حقًا إن الأمر يستحق، فكيف له أن يُضيع كل هذه السنوات هكذا لتصبح هباءً منثورًا!! إنني أشفق على شخصين تأخذهم سنين كثيرة في الحب والمشاركة والتقرب لبعضهم أكثر

ثم تأتي بعض الأمور الخارجة عن مقدرتهم لتنسف كل هذه السنين، لتهدم تلك العلاقة البريئة. أشعر بالأسف تجاه أولئك الذين خانتهم الظروف وعاندتهم الأقدار، أولئك الذين قُدر لهم أن يعيشوا ما تبقى من حياتهم مُرغمين على ما لا يُريدونه. أن يُصبح ذلك الحب مُجرد ذكرى بائسة لا يسعها سوى أن تُضيف على ذلك الجرح المزيد من الألم، أن يفترقا تحت مُسمى «النصيب»، تلك الكلمة التي يحاول البعض أن يُداري أسبابه خلفها، أن يهدم علاقة ظلت سنوات معقبًا إنه النصيب!! أي نصيب هذا ونحن نقف في وجه العلاقة؟! قد نُرغم أبناءنا على ما لا يُريدونه فقط لأننا أحببناه، بأي شكل من الأشكال سنطلب من شاب ضعيف ما لا يسعه لنقول له في نهاية الأمر إنه النصيب!! إننا نتوارى خلف النصيب بينما نحن مُجرمون في حقه.

= اتأخرت عليا ليه يا حبيبي؟

- معلش يا حبيبتي أحمد صاحبي كان عايزني.

= إيه في حاجة ولا إيه؟!

- آه؛ عايز يتقدم لندى وخايف يترفض وضغط على أهله عشان يروحوا معاه.

= وخايف ليه هي مش بتحبه؟!

- ماهو لسه قدامه سنه في الكلية وسنه جيش وكدة، فلسة

بدرى عشان يخلص، فخايف أهلها يرفضوه وحد تاني ياخدها منه وهم داخلين على خمس سنين حب أهو.

= لا إن شاء الله هيوافقوا والحب ده مش هيضيع.

- ياريت والله.

= وعقبالنا كدة.

- آه طبعًا هانت كلها كام شهر.

= يااا مُسهل.

- وحشتيني جدًا يا روحي.

= وإنت كمان أوي.

- صحيح كنت عايز أقولك حاجة تانية مهمة جدا.

= ايه يا حبيبي؟!

- أنا بحبك وبعشقك ومغرم بيكِ وبموت فيكِ يا كل ما ليا ويا كل حياتي أنا بدوب فيكِ.

= يا لهوي يا ولاد على السكر والعسل، مانا كمان بحبك وبموت فيك وبعشقك بجنون كمان.

- جنون مرة واحدة يا مريومتي!

= آه والنبي اتهبلت بحاجة اسمها يوسف، حياتي كلها هي يوسف أساسا.

- والله إنتِ كل حاجة يا حبي.
- ربنا ما يحرمني منك أبدا يا قلبي ويجمعنا في بيت واحد

على خير.

= ولا يحرمني منك يا صغنوني، يارب يا نور عيني.

وفي تلك الليلة التي تسبق ذهاب أحمد ليتقدم لندى قد جائني في منامي حلم غريب؛ يحمل في فحواه أنني كنتُ أركض أنا وأحمد في طريق مُظلم وفجأة سقط أحمد وهو يبكي بشدة، لا أعلم لماذا؟ وكان هناك شيء يُطاردنا ولكنني حمتله وواصلنا الركض ولكن في النهاية وصلنا إلى حفرة عميقة، وبينما كنت أحاول أن أضع أحمد من على كتفي سقطت في تلك الحفرة ونجا أحمد منها، وهنا استيقظتُ مفزوعًا.

لم أروِ هذا الحلم لأحد وتركته سرا بيني وبين نفسي، وفي اليوم التالي هاتفني أحمد في وقت متأخر وأتى إلى البيت.

- خير يا أحمد عملت إيه؟

= أهلها رفضوا للأسف.

- رفضوا إيه بالظبط؟ التوقيت؟ ولا الشخص؟ ولا إيه؟

= هم رفضوا إني هفضل خاطبها سنتين والله أعلم هكون اشتغلت ولا لأ!!

- طب ماحطتش أي اقتراح؟!

= أنا قولت إن أنا هحاول في خلال السنتين أجهز كل حاجة

بحيث أخلص نتجوز على طول.

• آه وقالوا إيه؟

= قالوا طب سيبها على الله وبعد سنتين تيجي تجوزها على طول لو في نصيب إن شاء الله.

• طب ماتفقدش الأمل وأكيد ربنا هيكرمك وهي أكيد أي حد هيتقدم هترفضه عشان تستناك، من ثم هي لسة فاضلها سنة تعليم زيك!

= ياريت والله هي وعدتني بكدة، بس أنا خايف الضغوط تكتر عليها وتوافق.

• لا أكيد طالما بتحبك هتستحمل ضغوط الدنيا كلها أنا متأكد.

= أتمنى والله، أنا مش قادر أوصفلك قد إيه أنا مكسور وزعلان.

• يا أحمد ماتشلش هم وربنا هيفرجها إن شاء الله.

= يارب، أنا خايف جدا.

• لا متخافش وثق فيا بقا.

في الواقع بعدما سمعت هذه الكلمات دار في ذهني ما حدث في ذلك الحُلم، وبدأت أفسره في رأسي؛ شعرتُ بأن هناك كارثة بانتظاري وأنها ستُفرج على أحمد لا أعلم ولكنني خائف مما قد يحدث لي وأتمنى أن يسوء تفسيري.

أنا أستغرب أن أكثر علاقات الحب دائما ما تأتي في التوقيتات الخاطئة، ثمة شيء خاطئ يحدث في هذه العلاقات، هل يكون توقيت اختياراتنا خاطئًا؟! أم أننا نتأخر في الوصول! هناك العديد من التساؤلات التي تدور في رأسي، ولكن ما هو متأكد منه أن الأغلبية تبوء بالفشل، وما زلت أبحث في أسباب هذه الظاهرة الغريبة والمؤلمة في آن واحد، فإن فشل مثل هذه العلاقات يؤثر بالسلب على أغلبية الشباب؛ لذلك تجد أن هناك زيادة مُريبة في معدلات الطلاق، وزيادة غير مسبوقة في معدلات مُتعاطي المُخدرات، وأكاد أجزم أن أغلب هذه الزيادات بسبب فشل العلاقات في مجتمعنا وما تخلفه من فقدان للأمل وشغف المواصلة.

تركني أحمد ورحل ولكنه خلف وراء رحيله عبء التفكير في ذلك الحلم، وما قد تؤول إليه نهايته، وتركني أبحث في أسباب فشل أغلب العلاقات وما بدأت أراه في كل مكان، حيث بدأت تحاصرني فكرة الفشل من كل الجهات، تعبت من التفكير في كل هذا حتى سرقني النوم.

إن أسرع ما قد يحدث في الحياة هو مرور الأيام و تواليها، ربما نتمنى قدوم يوم لأننا أحببنا قدومه، ولكن بالكاد يقربنا مروره إلى الموت أو إلى انتهاء أيامنا في الحياة بشكل أدق. أنا اليوم على

مقربة من مرور عام على فقدان ما لا يُفقد وعلى رحيل ما ظننته أبدا لن يرحل. أنا اليوم أقف متسائلا كيف مرت الأيام؟ كيف واصلت الحياة؟ لماذا لم أُقدم على الانتحار؟ هل إنني في كابوس ما ولم أفق منه بعد؟ أشعر وأن أحدهم يكذب علي! أنا لا أصدق أن عامًا بأكمله قد مر على تلك الفجيعة ! أشعر وأن ذلك قد حدث لتوه، كل شيء تغير من حولي إلا أنا وحزني وحسرتي على رحيلهم وكأنني كنت بالأمس أودعهم بالمقابر، ثمة تلاعب بذاكرتي، أو أن عقلي لم يعد يهتم لمرور الأيام، إنها تركض وكأن قطارًا يطاردها. هناك شئ خاطئ يحدث معي؛ إنني يراودني شعور بأن حياتي لا قيمة لها، غير مُدرك لما أصبحت عليه حتى باتت الأيام تتلاعب بي، هي لم تعُد ذكرى رحيلهم بل بات الأمر أشبه بمقابلتهم كل يوم في إحدى غُرفي المُظلمة، نتحدث سويًا ويرحلون ثم نتقابل في اليوم التالي لنتحدث مجددًا، هم ليسوا ذكرى بل واقع أواجهه كل ليلة.

***

في صباح يوم كسابقيه كنت جالسا كعادتي وحيدا أستمع إلى إحدى معزوفات بيتوهفن وقد قطعت مريم المعزوفة باتصالها:

= أيوة يا حبيبي.

- معاكِ يا روحي.

= عامل إيه؟

- تمام الحمد لله وإنتِ؟

= حلوة بس إنت واحشني.

- والله وإنتِ يا حبيبي.

= طب مش هشوف القمر ولا إيه؟

- عايزة تشوفي القمر استني كلها كام ساعة والليل ييجي.

= لا يا خفيف عايزة أشوفه في النهار.

- إذا كان كدة هضطر إني أطلعلك العصر بقا هههه.

= ههههه خلاص ابقى رن العصر عشان نتقابل.

- ماشي يا روحي باي.

= باي يا قلبي.

قد تسلبُنا الحياة ما لم نعتقد أنه قد يُسلب منا، ولكنها قد تُعطينا ما لم نتوقع مجيئه يومًا. إن الحياة لن تجعلك فرحا طوال الدهر ولكنها أيضا لن تتركك بائسًا أبد الزمانِ، نحن أتينا إلى حيث نكون ليتم اختبارنا لأن أبانا قد أحدث خطأً جسيمًا كلفنا ما نحن فيه، وعادة ما يحمل الأبناء أخطاء أباهم بالتأكيد لأنهم لو كانوا مكانه لفعلوا بالمثل، لذا فنحن قيد الاختبار؛ قد يتم امتحاننا في إيماننا في يوم، وثمة امتحان لصبرنا في يوم آخر. تتعدد الاختبارات والمُمتحنُ

واحد، وقد تتعدد أيضا والنتيجة واحدة ألا وهي الرضا. فنحن مُجبرون على التعايش مع كل فجيعة قد تحدث لنا، ومجبرون على الصبر في كل مصيبة قد تحرق بدورها قلوبنا، نحن كما نتراقص فرحا بما يوهب لنا، علينا أن نتماسك بقوة من قهر ما قد يسلب فلذات أكبادنا. إن الحياة كالعملة لها وجهان وتتمتع بالحظ؛ قد ترى فيها أمدًا طويلًا من الفرح، وقد تقتصر حياتك على البؤس الذي قد يتخلله حينٌ من الفرح، فأيًا كان حظك فأنت مُجبر على القبول والرضا. جميعنا علينا أن نخضع لقول خالقنا ومختبرنُا في قوله تعالى؛ بسم الله الرحمن الرحيم:

{واصبر لحُكمِ ربك فإنك بأعيُننا}

في الواقع أشعر أن الله قد قدر لي أن يتم منحي كلا الشيئين؛ الحزن والفرح، الحياة والموت، في نفس اليوم ليظل ذلك اليوم راسخا في كل أرجاء جسدي. نعم ذلك اليوم الذي كان جديرا بجعلي أتحسس طريق الحياة بعد سقوطي ذات صباح في عيون مريم كان ذاته الذي سلب مني الحياة وتركني على حافة الانهيار بيني وبينه نسمة هواء قد تسحقني! العشرون من فبراير المُلطخ بالفرح والضجر والألم؛ ذلك اليوم الذي كسى سواده على أفراحه، كان بمثابة يوم ولادتي حتى قُدر له أن يكون أتعس أيامي على الإطلاق. ذلك اليوم الذي أعلن أحدهم بأحد المآذن أنه تم اغتيال

واقعي، وتم سلب روحي والحياة معا إلى حين إعلان التوقف البيولوجي لأعضائي، لأن حياتي قد رحلت مع إعلان رحيلهم، وأن جسدي فقط هو ما يؤشر على وجودي بينكم. أنا ما زلت أتمنى أن يكون فبراير تسعة عشر يومًا حتى لا يصل للعشرين.

= إنت فين يا حبيبي؟

- جاي أهو يا مريم دقيقتين بس.

= ماشي مستنياك.

وصلت إلى مريم في إحدى الكافيهات وجلستُ بمقابلها، أنا يتملكني شعور غريب عندما أنظر بعينها عن قرب وكأنني أنظر إليهما لأول مرة؛ ساحرتان بأتم معنى الكلمة، جديرتان بانتشالي من واقعي المؤلم. نظرت إليها نظرة حنونة مع كلمة يتدفق منها الفرح والسعادة وكمية وفيرة من الأمل «أحبك يا عزيزتي»، ابتسامة تُشبة تلك التي تُطلقها الأطفال لترد بدورها بطريقة تجعل قلبي أقرب لأن يشق صدرى ليخرج لاحتضانها وتقبيل عينيها «وأنا بموت فيك يا نور عيني»، لأجاوبها بعفويتي»أأنا نور هاتين اللؤلؤتين»؟! توسعت عيناها وكأنها بحر يغرق به الناظر «إنت مش نور عيني إنت عيوني نفسهم يا حبيبي.» ربما كان الرد كفيلا لأتصبب عرقا ونحن في منتصف الشتاء، وهنا شعرت بعدم

اتزان مما يحدث فاستأذنت منها للحظات.
ذهبت إلى الحمام لأستعيد اتزاني وأجفف عرقي وعدتُ إليها سريعا.

- القمر بتاعي هيشرب إيه بقا؟

= القمر عايز قهوة زي حبيبه،
نظرت لأحد العاملين بالكافيه وطلبت منه إحضار فنجانين من القهوة..

- على فكره يا مريم أنا حزين جدا.

= ليه بس يا حبيبي؟

- إنتِ مُتخيلة إن بعد كام يوم هيكون عدى سنة علي رحيلهم عني!!

= آه يا نور عيني، أنا حاسة بيك.

- أنا والله ما مصدق إنه عدى سنة، حاسس إنه كان إمبارح!

= أيوة أكيد أنت مش هتقدر تنساهم شيء مستحيل ومش هتقدر تتخيل إنهم بعدوا، بس عليك بالصبر.

- صابر والله صابر.

= وأنا جنبك ومعاك.
ذُرفت مني دموعي وأنا أشعر أن ثقل الدنيا قد وضِعَ على صدرى، هنا أخذت مريم بمسح دموعي قائلةً لي: «حبيبي والله

أنا معاك ومش هسيبك أبدا اجمد بقا.» أجبتها بكلمات مُتقطعة وأنفاس متهدجات: «إنتِ الوحيدة إللي باقية يا مريم، إنتِ بس إللي ليا، إوعي يا مريم تسيبيني لوحدي إوعي»، ضجرت مريم مني وقالت بحنان: «إيه إللي إنت بتقوله ده يا حبيبي، أنا عمري ما هبعد عنك حتى لو كلفني ده حياتي، أنا أموت لو بعدت عنك، ده إنت الحياة يا يوسف». هدأت نوبة حزني بعد سماعي لكلمات مريم، أيقنت أنها قد تهون عليّ مرارة الحياة، وأن حبها قادر على تثبيت خُطاي فيما تبقى من أيامي، وواصلنا الحديث لبعض الوقت من ثم غادر كلانا إلى بيته على أمل أن نغادر يومًا إلى بيتنا.

قررتُ أن أذهب إلى المقابر قبل ذهابي إلى البيت، وعلى الرغم من أن الوقت قارب الغروب إلا أن حنيني الجارف إليهم قد أرغمني على الذهاب إليهم، وصلتُ إلى هناك قائلا: السلام على أمة محمد أنتم السابقون ونحن اللاحقون، وقرأت الفاتحة من ثم جلست أمامهم محدثًا إياهم بكل أسى والدموع تفيض من عيني لم يُكتب لها أن تجف بعد. خرجت مني كلماتي وأنا غير مُدرك لها، كنت أصرخ لهم أن الزمن مر ولم يعودوا بعد، وأن الشوق لهم قد أكلني أكلا، لقد توحشت الجلوس معهم، لقد أخبرتهم أن صبري يقارب على النفاذ، الحياة تفتك بي يومًا بعد يوم، أصبحت

هشًا لدرجة أن أحدا قد قال لي: صباح الخير تذكرتكم وأنتم تقولونها لي كل صباح، فيهمُ البؤس إلى قلبي. إنني أنهار في كل مره أستيقظ من نومي ولا أجدكم بجوارى، إنني أتماسك في آخر اللحظات قبل ذهابي للنوم على أن أُقدم على الانتحار لرؤيتكم؛ فكم يأخذني حنيني الجارف إليكم قبل النوم. إنني ما زلت أعيش على أمل الموت قريبا لعلي ألقاكم أخيرا.

***

= صباح الخير يا يوسف.

- صباح الخير يا تيتا.

= أنا جاية عشان نروح المقابر بكرة مع بعض عشان بكرة ٢/٢٠.

- ماشي أنا مستنيكِ.

سمعت هذه الكلمات من جدتي وانتابني الحزن، فكلما تذكرت هذا اليوم أشعر بحاجتي للانتحار، كرهت أن ينطق أحدهم ذلك الرقم الذي كان بمثابة الصفعة التي قضت على روحي.

أحمد صديقي بدوره يهاتفني:

= أيوة يا يوسف إنت فين؟

- أنا ف البيت، ليه؟

= ماما عملت قرص وكدة عشان نوزع بكرة في المقابر على القُراء والمساكين على روحهم.

- أنا مش عارف أقولك إيه والله يا أحمد أنا بشكرك جدا.

= إنت عبيط يابني أنا أخوك يا يوسف فوق كدة.

- حبيبي والله.

= طب أنا جايبهم وجايلك.

- ماشي وأنا هعمل القهوة لغاية ما توصل.

= ماشي.

لا أستطيع أن أصف أحمد صديقي بكلمة سوى: «رُبّ أخ لك لم تلده أمك»، دائمًا ما أجده بجانبي، يساعدني، يفعل معي كل شيء، ما أجمل الصداقه التي تلد لنا مثل هؤلاء! إنني فخور كونه صديقا لي.

جاء أحمد وجلسنا سويًا ورحل، من ثم وصلت جدتي وذهبت للنوم وأنا مُنهك من الألم والبكاء.

في العاشرة من صباح اليوم المشئوم مريم تتصل لتقول لي: «صباح الخير»، لأقول لها: «أي خير هذا في يوم كهذا»؟! ولكنها قالت لي: «إيه يا يوسف هو ده كلامنا ولا إيه صل على النبي أومال»!

«عليه الصلاة والسلام»، « قوم خد شاور وفوق عشان اليوم طويل،» «حاضر».

استيقظت لأنظر حولي وأتذكر ما حدث في مثل هذا اليوم من عام مضى، تناولت الإفطار معهم، ضحكاتنا المُعتادة، فرح يملأ البيت، كنت تدخل البيت تشعر وأنك في قاعة أفراح من تلك السعادة التي تعم أرجاء البيت!

والدي يقرأ القرآن وكأنه يستعد للسؤال' حمزة ما زال يغط في نومه وكأنه كان يعلم أنها ما قبل الأخيرة، خديجة تلهو وتأخذ آخر ما تبقى من طفولتها، والدتي تُنظف البيت حتى تتركه لي نظيفا قبل الرحيل، تأتي لي لتخبرني بأنهم ذاهبون لجدتي، لقاء مريم منعني وهناك شيء يُحركني لأقول لهم لا تذهبوا، شعورى بالذنب تجاه تركهم يذهبوا بدوني ما زال يلازمني، كل شيء أصبح جاهزا، لقد كان كل منهم يشبه الملاك، جميعهم قبلوني وقالوا لي إنهم بانتظاري هناك، لم أفهم ما كانوا يقصدونه بهناك! لقد كان على حد علمي أنه عند جدتي ولكنهم كانوا يقصدون حيث بحانب الله. أبي يقول لي كُن حذرا على نفسك، أمي تحتضنني بشدة وتقول لي: يوسف خد بالك من نفسك، إخوتي يقبلونني، هناك شيء مريب أشعر به، أغلقت أمي الباب ومع نظرة تحمل

في طياتها الوداع الأبدي ولكنني لم أنتبه لها جيدًا، أغلقت الباب وكأنها أغلقت كل شيء معه؛ الأمل، الشغف، المواصلة، الحياة، الفرح، أغلقته للأبد.

تجهزت بدوري للذهاب لمريم، خطوات مُرتعشة على غير العادة، القهوة تسقط من دون سبب، قلبي يرتجف، هاتف يتصل، خبر حول شكي إلى يقين، ثمة فجيعة قد وقعت قد أدركها قلبي مسبقًا ولكنه حاول تجاهلها، أحدهم يُخبرني أن مكروهًا أصاب عائلتي، صدمة أفقدتني الوعي، أفيق في المُستشفى، طبيب يأخذني منفردًا ليقول لي في معنى كلامه: تشجع لقد تركوك وحيدا، حسرة وصراخ بكاء ونباح، هذا الطبيب طعنني بكلامه في قلبي، ورطمني بشدة على عقلي، الدماء تنزف مني ممزوجة بالدموع، صراخي قد جمع الجميع حولي، أذهب حيث أمي أوبخها على تركي، ما زلت لم أستوعب أنهم تركوني، ألطم على وجهي وأصرخ ولكنها لا تريد الرد، إنها لم تجاوبني في ذلك وإلى الأن لم تجاوبني على سؤالي؛ لماذا تركتموني وحيدا؟ ولماذا لم تأخذوني معكم؟

وهنا قطعت جدتي حبل ذكرياتي ودخلت عليّ وجدتني منهمرًا في بكائي لتحتضنني وتشاركني البكاء.

في النهاية كان عليّ التشجع لأقاوم بكائي ونحيبي لأذهب إلى المقابر، تجهزت وكأنني على مقابلة معهم، ورحلنا إلى حيث يرقدون.

اجتمع القراء حولي أنا وجدتي وأحمد وقررت مريم المجيئ رغم رفضي، وفي كل آية كنت أسمعها تصرخ روحي بداخلي، وتنفجر عيناي من البكاء. لم أستطع أن أقاوم شوقي إليهم، بكيت وصرخت وكأنهم رحلو بالأمس، ذلك العام لم يُغير من بؤسي شيئًا،إنما أنا أسير رحيلهم إلى الأبد، ومريم بجانبي تبكي لهول انهياري وتمسح دموعي، توعدني بالبقاء جواري وأجاوبها أن لا بقاء سيمحوا رحيلهم، ثمة غصة في حلقي ستظل للأبد، روحي طُعنت ولن يقدر أحد على شفائها. إنني مهزوم شر هزيمة حتى الفناء، وواصلت البكاء حتى حل الظلام ولكنني لم آبه له أبدا؛ فلقد حل الظلام بي منذ رحيلهم ولم يرحل عني منذ ذلك اليوم.

لقد انتهى اليوم وشعرت أنني كنت في الجحيم حقًا، لقد جعلني رحيلهم رخوًا وهشًا، لا يسعني الصمود طويلا.

عادة ما تمر الأيام شئنا أم أبينا، كنا فريحين أو كانت التعاسة تلازمنا، فبكلا الحالتين ستركض الأيام وكل شيء سيمر، هكذا

هي الحياة وهكذا أصبح الأمر طبيعيا بالنسبة لي! تعاسة وحزن وذكريات مؤلمة ولكن كل شيء يمر وعمري ينقضي شيئًا فشيئًا في تلك الزاوية الضيقة من التعاسة.

***

في إحدى أيامي بالجامعة وبعدما أنهيت محاضراتي قابلت مريم بأحد الأماكن التي اعتدنا الجلوس فيها في الجامعة، لقد أذن العصر والجامعة أقرب لأن تكون خاوية، ودائما ما نحب هذا الوقت حتى لا تقتلنا نظرات المارة، أو تصيبنا بالحسد على حسب ظني. جلست بالقرب مني وأنا أنظر إليها كأنها آخر أمنية لجندي يلفظ أنفاسه الاخيرة، أنظر إليها وكأنها آخر شربة ماء على الأرض، إنني أواصل النظر تماما كأنها الحياة، تبتسم كعادة الملائكة وتقول لي بنبرة يملؤها الاغتباط: «بحبك» تنفك يداي المُتشابكتان كأفكارى التي تكاد تتعارك من هول هذه الكلمة، كنت في الماضي أتلعثم عندما أسمع هذه الكلمة ولكن الأن أصبحت أكثر صلابة من ذي قبل، وهنا مسكت يديها الناعمتين وقلتُ لها: «إنني لا أحبك»، نظرت باستغراب ولكني سُرعان ما قطعت استغرابها بقولي: «أنا بعشقك، وبعشقك كل حاجة فيكِ»، ضحكت وقالت: «بحسب»، التمعن في ملامحها مُرهق جدا، فإن صدرى يختلج بالانبهار كلما تمعنت بها وكأنني أراها لأول مرة، لا أستطيع أن

أدرك أن هذه الفاتنة والحقيقة ستكون لي بعد بضعة شهور. في هذه اللحظات كنت فقط أتمنى أن تركض الأيام سريعا ليأتي ذلك اليوم الذي ستكون هي ملكًا لي، لعلها تهون مرارة ما فقدته في حياتي! أرجو من الأيام أن تسرع ومن القدر أن يمنحها لي فلقد سئمتُ الانتظار. لقد رحلنا من الجامعة بعد بعض الوقت من سرقة النظرات لبعضنا الآخر، وتلاحم أفكارنا بأحاديثنا العفوية، كل ما يهم أن أكون بالقرب منها لا أكثر ولا أقل.

***

= أيوة يا يوسف إنت فين كدة؟

- أنا في البيت.

= طب بقولك ما تنزلي كدة في الكافيه.

- حاضر خمس دقايق وجاي.

مثل هذه المكالمات من أحمد أعي جيدًا أنها تحمل في طياتها شيئًا ما، أسرعت بالنزول إليه وقابلته:

- إيه يا أحمد في ايه؟

= في خبر مهم عايز أقولهولك.

- خير؟

= ندى حاولت مع أهلها وأقنعتهم بيا وقالتلي إنهم هيوافقوا لو

اتقدمت آخر السنة.

- إنت بتتكلم جد؟

= آه والله أنا مبسوط جدًا جدًا يا يوسف.

- طب ألف مبروك يا حبيبي، وإن شاء الله تكمل على خير.

= إن شاء الله.

- مش قولتلك الحب مش بيروح هدر وخاصة إنها بتحبك، وكنت واثق من كدة وقولتلك روح وماتترددش عشان ماينفعش تضيع الحب، لازم تحارب عشانه ولما تحارب عشانه أكيد هتكسبه في الآخر. مستحيل هتتخذل وإنت حاولت كتير، أكيد في مره هتنسيك كل الخيبات إللي قبليها.

= طبعًا مكنش ينفع، كنت لازم أحاول وكنت هفضل لغاية ما ربنا يكرمنا، إحنا تعبنا كتير مع بعض وبقالنا سنين بنحب بعض، أنا مقتنع إن طالما الاتنين بيحيوا بعض ومخلصين أكيد ربنا هيجمعهم مع بعض، الطيبون للطيبات يا يوسف.

- آه والله أنت لخصت كل حاجة، أنا مقتنع إن علاقة حب بتفشل بيبقى ربنا مش رايد لطرف من الطرفين إنه يجمعه بالتاني لأن فيه حاجة هو مش عرفها عنه أكيد ربنا عارفها وخاف عليه منها، ربنا بيختار الأصلح حتى لو شفناه وحش، ربنا عليم بكل شيء، عشان كدة بنخضع لقضائه.

= آه أكيد، الحمد لله.

- فرحتني جدا والله.

= عقبالك بقا إنت كمان.

- إن شاء الله.

ربما كنت واثقا من أن أحمد سيفوز بها، لقد كان كلاهما مخلصين لبعضهما الآخر، لقد كنت مشفقًا عليه جدا أن يخسرها، ولكن في النهاية انتصر الحب، انتصر لأن كلاهما حاربا لأجله، وقفا في وجه طوفان النصيب وقررا أن يُعانداه حتى يرضى، لأن كلاهما رابطا على بعضهما الآخر، أحب الآخر كما يجب أن يكون المُحب؛ مطيعًا، ودودًا، مخلصًا، مؤمنًا، كل الصفات كانت بهم، لذا فكان حتميًا على الحب أن يتوج تعبهم بالحلال وأن يصلوا إلى بداية جديدة في صفحات الحب، حيث هناك المزيد بانتظارهم.

- أيوة يا مريم.

= معاك يا حبيبي.

- في خبر فرحني جدا.

= إيه يا روحي؟

- أهل ندى هيوافقوا على أحمد.

= بجد والله!

- آه والله.

= طب الحمد لله، تعبهم وحبهم مارحش هدر.

- آه أنا كنت زعلان جدا عشانه بس الحمد لله، ما تفرج إلا بعد ضيق.

= ربنا يتمملهم على خير.

- يارب يا حبيبتي، وعقبالنا بقا هانت أهو.

= يارب يا حبيبي.

قبل أن أنام جلست أفكر مليا؛ كيف سأدخل على أهل مريم؟ هل سأدخل وحدي فأنا وحيد؟! عمي وعمتي يعيشان في أمريكا منذ زمن طويل وأمي كانت وحيدة، ولا أملك أحدًا إلا جدتي وهي كبيرة، ولكن لا يهم المهم أنني سأذهب، ومريم قد تهون من أي عُسر قد يحدث لقد وعدتني بالمستحيل لأن نواصل سويًا. خلدت للنوم وأنا أتخيل كل شيء في ذلك اليوم، سيكون دربًا من الخيال حقًا.

***

كنت جالسا في إحدى الليالي في غرفتي، ولكن شعرت ببعض الضيق، فقررت أن أنزل من البيت لأتمشى بعض الوقت، كان الوقت متأخرا بعض الشيء. ذهبت إلى المقهى وجلست، فنجان القهوة كعادتي، هناك القليل من الشباب حولي تشعر وكأنهم

يهربون من مرارة الواقع مثلي، دائمًا ما أكون ودودا لفنجان القهوة، أشعر وأنه يحتوي غضبي الدائم وضيقي من الحياة، إنها تغسل كآبتي. وبينما كنت سارحًا في خيالي قاطعني رجل يقارب عمره السبعين:

= ممكن أقعد معاك يا ابني؟

- آه طبعًا اتفضل يا حاج.

= معلش لو بضايقك بس وأنا قاعد لاقيتك سرحان كدة وفي حاجة واخدة ذهنك، فقولت آجي أقعد معاك، أصل وأنا في سنك كدة كنت بعمل زيك؛ أقعد مع فنجان القهوة وأسرح بخيالي شوية.

- والله يا حاج فعلًا الواحد بيسرح بخياله، يعني لا هيبقى حقيقة ولا خيال!

= واضح إن الدنيا تعبتك أوي يابني!

- ده مش تعبتني يا حاج ده بتقتلني بالبطيئ.

= إنت اسمك ايه يا ابني؟

- اسمي يوسف ياحاج.

= اسم جميل، معاك الحاج حسن.

- يا مرحب يا حاج حسن تشرفت بيك.

= ربنا يخليك يا يوسف.

= بص يا يوسف، أنا يابني بقالي تلاتة وسبعين سنة شوفت فيهم العجب العجاب، والدنيا لعبت بيا بكل الطرق، وشوفت الأسود

والأبيض، أنا شوفتك حسيت إني بشوف نفسي من خمسين سنة فاتوا، باين على وشك وملامحك الأسى والحزن، لو مش هضايقك ممكن تحكيلي يمكن أفيدك!

- عارف يا حاج، مفيش في الكون ده كله حد ممكن يفيدني في إللي أنا فيه، حاجة مابتتعالجش.

= ليه كدة يابني إيه إللي حصلك؟

- كنت عايش حياة مفيش زيها، ماكنتش مصدق نفسي؛ عيلة مثالية، والفرح مالي البيت، ودايما كل شيء ناجح، وفجأة كل شيء اختفى!

= إزاي؟

- عيلتي عملت حادثة وماتوا كلهم.

= أنا أسف يا ابني والبقاء لله وحده وربنا يرحمهم، وإنت ما عليك إلا الصبر.

- أنا صابر والله ومستني الفرج.

= بقالهم قد إيه؟

- من سنة.

= وإنت يا يوسف عايش لوحدك؟

- آه مليش حد أصلا.

= طب بص يا ابني، أنا كنت شبهك أوي فقدت أبويا ومن ثم أمي، وإخواتي طردوني بسبب الميراث، وبعدت عنهم، حسيت

بالقهر، إن إللي من دمي يعاملوني كدة! بعد ما أبويا وأمي ماتوا شعور مؤلم ومؤذٍ، يمكن لو كان إخواتي ماتوا كان أرحم من إنهم يذلوني بالشكل ده، كنت عايش بتمنى الموت، أنا أصغر واحد وشاب ولسه أعزب؛ هروح فين وأعيش إزاي؟! روحت اشتغلت في مصنع وكنت بقبض مرتب وأجرت شقة صغيرة، وكنت بحاول أكمل تعليمي، أخدت وعد على نفسي إني لازم أبقا راجل وقد المسئولية، واتخرجت من كلية تجارة، وربنا كرمني بصديق عزيز ليا مسافر الخليج بعتلي وأخدني معاه، اشتغلت هناك وربنا عوضني كويس أوي، وبقيت مرتاح ماديا لأبعد الحدود وقررت أنزل مصر تاني عشان اتجوز. نزلت وقعدت أدور على واحدة وف مرة من المرات قادتني الصدفه لأني أقابل بنت جميلة في بنك من البنوك وأنا بغير فلوس، حصلت مشكله معاها هناك وأنا حليتها ليها ومن هنا بقا اتعرفت عليها وكلمتها وحبتها جدا، ملقتش حد في حياتي غيرها، المهم إن أنا اتجوزتها وسافرنا مع بعض تاني، وعشنا سنتين ميتعاشوش؛ فرح بس مفيش حزن خالص، بس جه في يوم اتصدمت وبعد سنتين اكتشفت إن أنا عقيم ومابخلفش، اتقهرت من جوايا عشان كان نفسي أوي في عيل ليا، وهي كمان زعلت. وبعد فترة روحت لقيت حسابي البنكي صفر ومحدش معاه توكيل للبنك غيرها، خدت الفلوس ومش لاقيها ولما روحت لاقيتها سايبة رسالة بكل بجاحة كاتبة فيها: ده حق السنتين إللي

عشتهم معاك غصب عني، ماتدورش عليا عشان مش هتلاقيني، وبعد كام سنة اكتشفت إنها اتجوزت صاحبي ومشيوا من البلد إللي كنا فيها، شوفت الغدر والخيانة في نفس الوقت، فقدت أبويا وأمي، إخواتي طردوني، مراتي سرقتني وخانتني، وصاحبي طعني من غير ما أحس، وعايش لغاية دلوقتي لوحدي بخاف من البشر وبترعب منهم، بشوف وحوش قدامي، ومابثقش في أي حد. البشر دول ملاعين يا ابني إوعاك تثق فيهم مهما بينوا ليك قد إيه مخلصين وبيحبوك، إنت مش مُبتلى لوحدك يا يوسف في كتير زيك، احمد ربنا واصبر الدنيا دي أساسا فانية وملهاش أي لازمة.

- ياه يا عم الحاج حسن إنت الدنيا جت عليك أوي!!

= الحمد لله يابني، كله قضاء وقدر.

- الحمد لله.

= المهم إنك ماتيأسش وكمل حياتك، واتجوز بس حاسب وإنت بتختار عشان ده أهم اختيار يا بني؛ يا تكون يا ماتكونش خالص، يا تختار إللي تعيشك، يا تختار إللي تقضي عليك، فا وأنت بتختار خليك واعي يا يوسف، خليك واعي يا بني.

- إن شاء الله يا حاج هيبقى خير.

= إن شاء الله يابني.

= هقوم أروح أنا وأنا تقريبا هنا كل يوم لو حسيت بحاجة أو

متضايق ابقى تعال اقعد معايا نفضفض شوية.

- ماشي يا حاج.

= مع السلامة يا ابني.

- مع السلامة يا حاج.

***

كنت أظن أن الحياة اقتصر ألمها عليّ فقط، حتى ظهر الحاج حسن ليُريني أن هناك الكثير مني، لست وحدي بائسًا هناك الكثير والكثير! لقد هون عليّ ما أنا فيه من ضيق، ولكنه أضاف عبئا على عقلي فيما يخص الزواج، ولكن في جميع الأحوال أنا أثق في مريم، وربما الظروف لا تتشابه. عدتُ إلى البيت وأنا مليئ بالتفكير وأعاود تذكر ما حدث لذلك الرجل، شعرت لوهلة أن قريني قد أتى ليخبرني ما سأكون عليه في السبعين، ولكن سريعا ما تغافلت عن هذا الشعور لأنه سيضيف المزيد من الألم والخوف بداخلي، سأذهب إلى النوم ولكن ليس كما سبق؛ اليوم هناك عِبرة قد تنفعني فيما تبقى من حياتي، عِبرة الحاج حسن.

***

= أيوة يا يوسف إنت فين؟

- أنا في الطريق أهو.

= طب يلا ماتتأخرش عشان مناقشة المشروع.

- لا قدامي عشر دقايق بالظبط.

= ماشي مستنيك.

أحمد صديقي بانتظاري، إنها تقريبا من أسعد اللحظات لأي طالب جامعي؛ مناقشة مشروع التخرج وانتهاء المرحلة التعليمة، كنت سعيدا جدا فأنا سأكون على مقربة من أن أتقدم لمريم بعد فترة وجيزة، وهو أهم شيء بالنسبة لي في هذه الحياة أن أظفر بها مُطلقا.

وصلتُ إلى الكلية، وناقشتُ مشروع تخرجي وقد كانت نتائج المناقشه مُبشرة وكنت فرحاً للغاية، وكان لا بد أن تشاركني مريم هكذا حدث، قابلتها بعد المناقشة مباشرة.

= أيوة يا هندسة، مبروك يا حبيبي التخرج، وعقبال فرحنا.

- الله يبارك فيكِ يا نور عيني، وقريب إن شاء الله.

= بس إيه الشياكة دي، ده إنت هتتعاكس كده!

- قليل مما أملك ههههه.

= والنبي!! طب خلي واحدة تعاكسك كدة عشان يبقى آخر يوم في عمرك وعمرها.

- طب وأنا مالي!!

= مش إنت إللي محلي نفسك، يبقى تتعاقب معاها !!

- خلاص يا ستي هاتي تراب من الأرض وحطي عليا عشان محدش يبص.

= لا سماح المرادي، بس دي آخر مرة.

- يعني أبقى وحش على طول يعني؟!!

= قوولنااا إيه !!

- خلاص طيب ماشي، مش هتشيك.

= أيوة كدة اتظبط.

انتهى اليوم وأنا سعيد جدا، ولأول مرة أتذوق شيئًا من السعادة، ولكن سرعان ما عرف الحزن طريقي بعد تذكري لأمنية أبي وأمي في رؤيتي في هذا اليوم، في الحقيقة بكيت عندما تذكرت وذهبت للمقابر لأبلغهم أنني حققت لهم حلمهم، وأنني لم أخذلهم أبدا.

قررت أن أقيم احتفالًا مع مريم بمناسبة انتهائي من المرحلة التعليمية، وأخبرتها أنني سأصطحبها إلى السينما ووافقت، وذهبنا سويًا.

- عايزة تدخلي فيلم إيه يا حبيبتي؟

= شوفلنا حاجة رومانسية.

- مابتحبيش الرعب؟

= لا خالص، الرعب ده حاجة صعبة أوي.

- خلاص تعالي في فيلم رومانسي حلو هندخله يلا.

= يلا.

دخلنا وجلسنا في المقدمة وهي بجانبي وتنظر لي بتلك النظرات الحنونة تماما كنظرة الرضيع لأمه، نظراتها التي جعلتني طوعا لعينيها هكذا، لحظات رومانسية على أعلى طراز نعيشها الآن.

وفي إطار الفيلم كان البطل ضحية لقصة حب، خذلته فيها حبيبته وعاش بائسا حتى حصل على أخرى عوضته عما فقد.

=» هي سابته ليه الغبية دي؟

- مش فاهم! عايزة تبعد عنه ليه رغم إنه كويس معاها؟!

= أهو حب غيرها وعايشين حياة سعيدة وهي عايشة حياة بائسة.

- آه إللي بيخسر حد بيحبه القدر بيقتص منه أكيد.

= عندك حق.

- بس معتقدش إن في حد لسة كدة، مجرد أفلام بس مش

أكتر.
= ياريت والله.

انتهى هذا اليوم وكنا سعداء جدا، ولكن دائما ما يحول عقلي الفرح للحزن؛ لقد أخذت أحداث الفيلم هاجسا كبيرا من تفكيري، وأعادت لي ما دار بيني وبين الحاج حسن منذ أيام، الأمور من حولي غير مُبهجة ولكني واثق من أنني لن أفشل في الحب؛ فأنا ومريم نمتلك المقومات للوصول بالعلاقة إلى بر الأمان.

***

وفي أحد الأيام جاء أحمد صديقي لي البيت وجلسنا سويًا.

= أنا جاي أعرفك إني هروح أتقدم لندى آخر الأسبوع.
- طب الحمد لله، ربنا يتمم على خير إن شاء الله.

= إن شاء الله، وإنت مش ناوي تروح لمريم؟
- لا هروح بس مستني أرتب أموري كدة وأتفق معاها على معاد وكدة.

= طيب ربنا يسهل.
- يارب.

كنت سعيدا جدا بخصوص أحمد صديقي، وأن حبه قد نجح، ولكني شعرت بالارتباك حيال الذهاب لمريم وأجلت مفاتحتها في هذا الأمر بعض الأيام لأستعد جيدًا، وأهيئ نفسي..

***

وبعد مرور ما يقارب الشهر و على تخرجي شعرت بأن هناك تغيرات بدأت تطرأ على علاقتي أنا ومريم، بدأت أشعر أن بها شيئًا ما؛ بدأ يقل اهتمامها تجاهي بطريقة مريبة، أشعر أن ثمة شيء ما لا أعرفه. وفي إحدي الليالي هاتفتها:

- أيوة يا حبيبتي.

= أيوة يا يوسف معاك.

- مالك كدة؟

= مفيش حاجة.

- لا حاسك مخنوقة كدة، في حد مزعلك؟ بقالك فترة مش عجباني خالص!

= لا، أنا حلوة مفيش حاجة.

- طب أنا هقولك خبر يفرحك بقا.

= إيه؟

- أنا هاجي يوم الجمعة أتقدم ليكِ.

= الجمعة الجاية دي؟

- آه.

= طب معلش أخرها شوية عشان في ظروف في البيت وكدة، ولما تتحل هبقى أقولك.

- مريم ظروف إيه؟

= شوية ظروف وهيعدوا.

- إنتِ مخبية حاجة عليا على فكرة، قولي في إيه؟

= يا يوسف مشاكل بين بابا وماما.

- طب اهدي وكل شيء هيتحل إن شاء الله متزعليش نفسك.

= إن شاء الله.

= أنا هروح أنام عشان تعبانة.

- ماشي تصبحي على خير يا حبيبتي.

= وإنت من أهله.

أشعر أن مريم تكذب علي، ثمة شيء آخر يدور في الكواليس، هناك شيء أنا لا أعلمه، لم أسمع تلك النبرة منها مُسبقا، حدثت الكثير من المشاكل ولم تتحدث بهذه الطريقة أبدا، إنها لم تقل لي أي كلمة من كلماتها المعتادة، شعرت أن لسانها عجز عن قول حبيبي ولو لمرة واحدة !! لن يرى النوم عيني في هذه الليلة.

جلستُ أفكر ما الذي قد يحدث؟ هل أغضبتها في شيء؟ ولكني أبدا لم أفعل!! هل شعرت أنني تأخرت بضعة أيام في الذهاب إليها؟ بالتأكيد ليست بهذه السذاجة!، عقلي يغلي مما سمعه من مريم، وأدرك أن هناك شيئًا ما لا يعلمه، في نهاية المطاف هزم النوم عقلي وأجبره على النوم، لقد كان مُرهقا جدا.

***

في صباح اليوم التالي استيقظت مُبكرا، وأنا ما زلت أخمن ماذا يحدث، ولكنني قررت أن أزيل الضغوط عني وقررت الذهاب للجلوس مع أحمد لأتحدث معه، هاتفته وقابلته:

= إيه يا يوسف في حاجة ولا إيه؟

• إمبارح كنت بكلم مريم، وقولتلها إني هتقدملها آخر الأسبوع، قالتلي إنها عندها مشاكل في العيلة ونأجل الموضوع شوية.

= طيب وإيه المشكلة أجله لغاية ما المشاكل تتحل.

• لا أنا حسيت من نبرة صوتها وطريقة كلامها إنها بتكدب.

= يا يوسف ميبقاش ظنك وحش.

• يا أحمد أنا عارف مريم كويس جدا، ومحدش هيعرفها أكتر مني، دي مقالتش كلمة واحدة حلوة في المكالمة، أنا متأكد

إن في حاجة والله.
= يا بني اهدى، إنت تفكيرك السلبي ده هيتعبك، مش ممكن تكون مابتكدبش والمشكلة صعبة وكبيرة يا يوسف، خليك عاقل كدة وخد الأمور ببساطة، إنت كدة بتعقدها، سيبها النهارده وكلمها بكرة، و إن شاء الله هتكون المشاكل اتحلت والأمور بقت كويسة.

- إن شاء الله عشان أعصابي سايبة من امبارح.

= ماتقلقش أنا واثق إن مفيش حاجة.

- يارب يا أحمد يارب.

شعرت بثقل على قلبي لا يُحتمل، شعور لا يُطاق، عقلي ينفثُ من التفكير، مشاعر جارحة تحتل أعماقي، أنتظر انفراجة تهون من شدة ألمي، هاتفي بين يديّ ولا أستطيع أن أهاتفها خوفا من أن يكون الرد ثقلًا جديدا فوق ثُقل البارحة، قررت الهدوء والتريث سأنتظر للغد لعل الانفراجة تكون...

مر اليوم بطيئا جدا وكأنه كان يأبه أن يمر، وكأنه كان يتلذذ بألمي كما اعتاد أن يتلذذ به، ولكنه في النهاية مر.

وفي اليوم التالي قررت أن أهاتف أحمد أولا:

- أيوة يا أحمد.

= أيوة يا يوسف.

- أكلمها دلوقتي ولا أصبر لآخر اليوم؟

= خليك لآخر اليوم يمكن هي ترن.

- خلاص ماشي.

سؤال لا يحمل أي أهمية، ولكنه إن دل سيدل على كم الضغوط التي أعيشها، والارتباك الذي يتملكني. إن أصعب ما قد يُنغص حياة شخص أن يتفرد به عقله في زاوية من زوايا تفكيره المؤرقة.. حسنا سأصبر لآخر اليوم، صليتُ العصر وقرأت القرآن وسألت الله ألا يُصيبني شر، لربما لم يعُد بي طاقة احتمال.

إنها السابعة ليلا..

أمسكتُ هاتفي وقررت أن أتصل بها، وضعت الهاتف على أذني والإجابة كانت أن الخط مغلق! شعرتُ أنه قد أغلق بدوره الحزن في قلبي ليلة أخرى.

فتحت جميع تطبيقات التواصل لأرسل لها الرسائل لكنها لا تجيب أبدا، الآن بدأت تتحول شكوكي إلى يقين، ثمة كارثة تنتظرني..

إن بحثت في أرجاء العالم كله ربما لن تجد من هو أتعس مني بهذه اللحظات، لن تجد من هو أشد بؤسا مني، لن تجد من هو

أشد خوفا مني، لن تجد من هو أكثر ترقُبا لهاتفه مني، صدقني إن كان العالم مُتسعًا ليحتضن كل هذه البشرية، فإن بداخلي ما يوازيه من الرعب والخوف.

أنا أتحرك في كل جزء بالمنزل، أرتعش خوفا، وأتصبب عرقا، أنتظر أن يرن هاتفي، لا أشتهي طعاما، والحياة لا تعي لي شيئًا سوف أن يرن هاتفي ناطقا باسم مريم، هناك أشياء لا أعلمها وإنني أخاف عليها كثيرا.
بينما كنت جالسًا في غرفة والديّ سمعت هاتفي يرن بغرفتي؛ ركضتُ كما لم أركض من قبل، قلبي شعر براحة ما، مسكت الهاتف وسُرعان ما عاد الألم؛ إنه أحمد:

- أيوة يا أحمد.

= إيه يا يوسف كلمتها؟

- يا أحمد برن عليها من امبارح الموبايل بتاعها مُغلق، أنا هتجنن.

= اهدى بس يمكن يكون موبايلها بايظ!

- يا أحمد هو إنت كمان هتكدب عليا، أكيد في حاجة يعني.

= لا والله مش قصدي بس ده احتمال!

- بص أنا هروحلها على البيت.

= بيت إيه يا يوسف إنت مجنون؟!
- أنا هبقى مجنون لو مش كلمتها فعلًا.

= طب معلش اصبر كمان يوم ولو مش كلمتك أنا هحاول أتصرف.
- أنا هصبر وده آخر يوم هصبره.

= ماشي يا يوسف.

أنا لستُ قادرا على فراق مريم ليومين، وعقلي لا يهدأ، ويكاد يتساءل ماذا لو فارقتها للأبد!؟ ولكن قلبي نهاني عن التفكير بهذا لأن هذا لن يحدث مهما كلف الأمر..

يوم جديد قد طل عليّ، وأنا أدعو أن يكون يوم الانفراجة، لقد طال الانتظار، أول شيء فعلته عند استيقاظي هو محاولة مهاتفتها، ولكني أعود خائبًا مرة أخرى، ما زال الهاتف مُغلقا، ربما سأنتظر لآخر هذا اليوم..

قارب اليوم على الغروب ولا جديد يُذكر ولا قديم يُعاد، كل شيء كما هو إلا قلقي في تزايد مُستمر، أحمد يتصل بي مجددا:

= إيه يا يوسف في جديد؟
- لا يا أحمد إيه العمل؟

= أنا هتصرف بكرة إن شاء الله.

- ياريت يا أحمد ووالله هيبقى جميل لآخر يوم في عمري.

= إنت عبيط يا يوسف هو في بينا كدة؟ إحنا اخوات.

- ربنا يخليك يا أخويا.

= ويخليك يا حبيبي.

حل الظلام ولكنه قد حل بي منذ آخر مكالمة بيني وبينها، لقد حل ولم يرحل من وقتها، ربما إستأنس المكوث بداخلي!

شعرتُ بحاجتي للبكاء؛ لعلي أرتاح من تلك الضغوط المُثقل بها كاهلي! انغمرت في البكاء وناجيت أمي بأنها تركتني وحيدا، تتلاعب بي الأقدار لأصبح هكذا هشًا، بإمكان كلمة عابرة أن تُسقطني في بحور من البكاء، إنني بحاجة ماسة إلى حضن أمي؛ كنت أشعر بداخله أنني محمي من ضربات هذا العالم المُبرحة.

في النهاية تركت جسدي على سرير أمي وأنا أبكي، وبينما فقدتُ الأمل في كل شيء أدركتني الانفراجة؛ رسالة بهاتفي توضح أن هاتف مريم أصبح مُتاحا، سارعت بالاتصال ولكنها لم تجب، ولكني لم أجزع حاولت مجددا إل أن أجابت.

بصوت مُتقطع ممزوج بالأسى والفرح؛ أسي الشوق وفرح الانفراجة،

تسارعت كلماتي قبل أن يُهيئها عقلي نطقها لساني:

- أيوة يا مريم فينك وحشتيني وقلقتيني عليكِ، أنا هتجنن، فيكِ حاجة؟

= أيوة معاك.

- هو في إيه يا مريم بقالي كام مش عارف أوصلك وهتجنن!!

= لا مفيش حاجة، أنا كويسة ماتقلقش.

- طب موبايلك مقفول ليه؟

= كان فاصل شحن والشاحن بايظ.

- آه طب وحشتيني.

= وإنت كمان.

- أنا حاسس إن في حاجة يا مريم!!

= يوسف قولتلك مفيش حاجة، هفضل أقول كدة كتير؟! أنا هقفل عشان أنام.

- طب اهدي استني بس أنا آسف.

= ماشي نتكلم بعدين بقى.

- مريم!

= تصبح على خير باي.

ما الذي يحدث؟!!! هذه ليست مريم!! أنا متأكد من أن ثمة أحد

غيرها يُحدثني! أم أنني أحلم، سكبت بعض الماء على وجهي لأصطدم بأن ما سمعته كان واقعا أعيشه.

مريم هي من كانت تحدثني، وهي من أغلقت الهاتف بوجهي، وهي التي تحدثني بطريقة سيئة، لقد تأكدت من أنها هي.

الآن لم يعُد هناك مجال للشك، هناك شيء ما يحدث وأنا متيقن من هذا، أنا على حافة الانهيار بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

***

في اليوم التالي لم أكن مُصدقا ما حدث بالأمس، واتصلت بأحمد ورويت له ما حدث وأجابني أحمد بأنه سيحاول جاهدا معرفة ما يحدث.

إن هاتفي لا يفارق يدي، أنتظر أن تتصل في كل لحظة متأملًا أن يكون ما حدث ماهو إلا مجرد عقبة وسنتخطاها. أنظر لهاتفي من حين لآخر ولا يجد جديد، حتي قررت أن أتصل أنا ولكن هاتفها مُغلقا كالعادة، وفي كل مرة أجد الهاتف مغلقا أشعر بنغزة قوية تُصيب قلبي، يتقلص حجم الأمل الموجود بداخلي، أفقد أعصابي شيئًا فشيئًا، وأشعر أن أحلامي بدأت جميعها تتهاوى أمام عيني،

ولكن قلبي ما زال يهون عليّ مصيبتي، ما زال يمُدني بالأمل من حين لآخر، إنه يعشقها بأتم معنى الكلمة، ويثق بها كما يثق الطفل بأمه، قلبي يرفض ما يروجه عقلي بأن هناك كارثة ستحل بي..

لا أعلم ما الذي عليّ فعله سوى أن أنتظر أن تحدثني هي، أو أن يعلم أحمد ما يحدث معها بشكل أو بآخر، سأصبر كما اعتدت في حياتي أن أصبر، أنا لا أملك إلا الصبر في هذه الحياة البائسة.

قارب اليوم على الانتهاء وأنا سأفقد صوابي من التفكير، حتى قررت مهاتفة أحمد:

- أيوة يا أحمد وصلت لحاجة؟

= أنا كلمت ندى يا يوسف عشان تشوف حد من صحاب مريم ولا حاجة وتحاول توصلها.

- يعني ندى عرفت حد ولا لسة؟

= بتدور والله وإن شاء الله بكرة بالكتير هتكون عرفت ماتقلقش.

- طب بص لو ماوصلتش لحد خليها تروحلها على البيت.

= حاضر ارتاح إنت بس وأنا هتصرف.

إن هكذا أشياء هي التي تُخيفنا من الحب؛ التقلبات التي قد

تصيب أحد الطرفين!

أشد أعداء الحب هو التغير، أن يقرر أحدهم الانصراف فجأة من أمام الآخر، هنا يصاب الآخر بنوبة فقدان لا تُحتمل، لقد كان بيده كل شيء وفجأة فقد كل شيء! أنت لا تستطيع تصنيف ما يحدث؛ أهو خذلان، أم إنها خيانة، أم إنه حب للذات، أم إنه قضاء رباني خارج عن كلا الطرفين؟! ولكن ما تستطيع تعيينه هو أن أحد الطرفين سيغرق في البؤس حتما، سيركض من البشر ركضا، سيتجنب العلاقات وما يشوبها، يتنحى جانبا عن الحياة، يحافظ على بعض ما تبقى منه، يحاول الهرب بتلك الرُفات التي ما زالت لم تتطاير منه، إنه يحاول جاهدا أن يكون وحيدا.

قلبي ما زال يؤمن بها، يعلم أنها ستعود، قد يأخذها عقلها بعيدا ولكن قلبها سيُعيدها لا محالة، فمها تمادت في بعدها سيحين وقت للرجوع أنا واثق من أنها ستعود، ولكني أخاف أن تعود في غير معودها، أن يفوتها القطار، إنني أريدها أن تعود سريعا، لا أن تترك قلبي يتعفن من شدة الأسى والبؤس، سأنتظرها دهرا إن شاءت أن تبتعد، سأتحمل سنينا إن خافت أن تقترب، سأختفي عنها عقودا إن كنت ثقلًا على قلبها، لا يهم ما قد يحدث ولكن ما يهم أن تكون سعيدة ولو كلفني الأمر قلبي. كل ما أوده فقط أن أعلم ما يحدث معها، إن قلبي يرتجف هلعا و خوفا عليها.

إنني أشعر بالألم كلما تذكرت تلك المحادثة، إن وراء هذه المحادثة الكثير والكثير، شيء كبير يحدث وأنا لا أعلمه، إن كلماتها كانت توحي وكأنها لا تود سماع صوتي، إنها تهرب من محادثتي، كل ما أدركته أنها لم تكن أبدا مريم التي أعرفها حقًا، شئ مُغاير عن الواقع تماما، ولكنها بعثت لقلبي ما لا يُطاق من الألم..

***

- أيوة يا أحمد ندى عملت إيه؟

= حاولت كتير وللأسف ماوصلتش لحد من صحابها تقريبا ملهاش صحاب كتير.

- والحل إيه؟ أنا ممكن أروحلها البيت.

= لا لا أنا هخلي ندى تروحلها وتقعد معاها ونعرف الحكاية كلها.

- ياريت يا أحمد ياريت أنا مش قادر.

= بكرة هتروحلها.

- خلاص ماشي هقابلك بكرة نوصل ندى للبيت ونرجع نستناها لما تخلص في الكافيه.

= ماشي.

لا يسعني أن أصف ما أشعر به من ذل تجاه ما يحدث لي، ولكنه

قلبي يقودني إلى حيث يريد ويفعل بي ما يشاء، المهم أنني أخيرا سأقف على تلك الأحداث التي تدور حولي دون علمي، سأصل إلى شيء من الراحة أخيرا.

وفي اليوم التالي وفي منتصف اليوم قابلت أحمد وندي، في البداية شكرت ندى على مساعدتها لي، وشكرت أحمد، وذهبنا إلى بيت مريم، وصعدت ندى إلى بيتها وعدتُ أنا وأحمد إلى الكافيه.

ونحن في الطريق للعودة قلت لأحمد:

- تفتكر يا أحمد هتقولها على الحقيقة؟

= مش عارف، بس أكيد هنستفيد من كلامها وهنفهم إيه إللي بيحصل بالظبط

- إن شاء الله.

***

وصلت ندى إلى بيت مريم وطرقت الباب، وقامت والدة مريم بفتح الباب:

- إزيك يا طنط أنا صاحبة مريم ممكن أشوفها؟

= حاضر يا بنتي اتفضلي.

وعندما خرجت مريم وجلست مع ندى، قالت لها ندى:

- أنا ندى خطيبة أحمد صاحب يوسف، أكيد عارفاني.

= آه يا ندى.

- طب ممكن ندخل نقعد لوحدنا أو ننزل نتمشي تحت شوية؟

= لا تعالي ندخل أوضتي أحسن.

- ماشي.

وعندما دخلا وأغلقت مريم الباب خلفها سألت ندى:

= أكيد يوسف إللي باعتك؟

- لا هو أحمد الصراحة، عشان يوسف متدمر حرفيا.

= اممم.

- ممكن تحكيلي في إيه يا مريم، إيه إللي حصل بالظبط؟

= أنا عندي ظروف جامدة وعايزة أكون لوحدي، مش حابة العلاقات دلوقتي، أنا قدامي سنة في التعليم وهفكر بعد السنة دي.

- طب هو يوسف زعلك في حاجة؟ كان السبب يعني؟

= لا يوسف إنسان محترم جدا ومازعلنيش في حاجة، بس أنا بفكر أكون لوحدي عشان حاسة إني بخبط، وكمان ماما وبابا عرفوا واتخانقوا معايا وقالولي إن ده مش وقته، وبعد ما أخلص يبقى كل الأمور تتحل.

- طب ماكلمتيش يوسف ليه وعرفتيه؟

= قولتله إن في مشاكل، وإن أنا مخنوقة وهو بيسأل أسئلة بتضايقني.

- طب ما هو أكيد هيسأل أسئلة زي كدة يا مريم هو مش متعود على بعادك بالشكل ده، وبقالك كام يوم موبايلك مغلق وهو هيتجنن وخايف عليكي!

= الموب بايظ أساسا.

- مريم إنتِ عارفة إنك كل حاجة بالنسبة ليه، وإنه مايقدرش يبعد عنك لحظات، أنا شوفت شكله اتخضيت.

= بقولك عندي مشاكل وتعبانة جدا، وفعلا محتاجة أكون لوحدي.

- خلاص ماشي براحتك، بس ابقي حاولي تكلميه وتفهميه كدة.

= إن شاء ا.لله

- آسفة لو كنت ضيعت وقتك أو جيت من غير معاد.

= لا عادي ولا يهمك.

- همشي أنا بقا هتعوزي مني حاجة؟

= ما تقعدي شوية.

- لا ربنا يخليكِ هتعوزى حاجة؟

= لا ربنا يخليكِ يا جميل.

- باي.

= باي.

وعلى الجانب الآخر كان يوسف يعصر رأسه من التفكير والأسئلة:

- تفتكر يا أحمد هتكون مجرد ظروف خارجة؟!

= آه إن شاء الله.

- أنا خايف جدا.

= يا عم استنى بس ندى هتيجي دلوقتي وهنعرف كل حاجة إنت مستعجل ليه؟

- طب هي اتأخرت كدة؟ ليه ما ترن عليها!

= حاضر

أخرج أحمد هاتفه وحدث ندى:

- إنتِ فين؟

= أنا نازلة من البيت تعال قابلني.

- ماشي.

أغلق أحمد الهاتف وأخبرني أنها انتهت من مقابلتها، وذهبنا لنقابل ندي، وعندما قابلناها جلسنا في إحدى الحدائق وأسرعت لسؤالها:

- إيه يا ندى احكيلي على كل حاجة دارت بينكو بالتفصيل؟!

= حاضر.

= بص، أنا دخلت وعرفتها إني خطيبة أحمد، قالتلي طبعًا جاية من طرف يوسف، وأنا قولتلها أحمد إللي بعتني، قولتلها ممكن تعرفيني إيه إللي حصل بالظبط، قالتلي مفيش حاجة، عندها مشاكل وعايزة تبقى لوحدها، سألتها يوسف السبب؟ قالتلي لا مش يوسف، قولتلها طب مش كلمتيه وقولتيله ليه على المشاكل؟ قالت إنه بيسأل أسئلة بتضايقها وهي مخنوقة، وسألتها قافلة الموبايل ليه، قالت إنه بايظ وكدة، قولتلها إن هي كل حاجة بالنسبة ليوسف ولازم تكلمه وتفهمه، قالت إن شاء الله، آه وكمان أهلها عرفوا إنها بتكلم يوسف واتخانقوا معاها وده سبب كمان، وبتقول إنها هتهتم السنة دي بالتعليم وبعد السنة هتفكر في الخطوبة والجواز، بس هو ده إللي قالته.

- يعني إيه، عايزه تبعد!!

= مش قدرت أفهم هي عايزة إيه، وبصراحة حسيت إن كلامها فيه تلاعب كدة، في حاجات مش قالتها.

- طب هي قالتلك إنها هتصلح الموبايل إمتى؟!

= مش عارفة بس قالت إنها هتبقى تحاول تكلمك.

- خلاص ماشي شكرًا جدا يا ندى إنتِ وأحمد وآسف تعبتكوا

معايا جدا.

= لا عادي ولا يهمك إحنا معاك وجنبك على طول.

- ربنا يخليكو يارب.

= ويخليك.

تركتهم وذهبت إلى البيت وأنا أجر خلفي مرارة ما سمعته وألمه.

«إنها القشة التي قصمت ظهر البعير»، لقد كانت كلمات ندى أشبه بسكين قد وضعته بمنتصف قلبي، أستطيع الجزم بأنها قضت على كل أمل بأنها ستُحدثني، شعرت بأن مريم تحايلت على ندى وكذبت عليها، لا يوجد مشاكل إنها فقط تود أن تبتعد، كيف يكون هذا ولماذا؟! فأنا لا أستطيع أن أجيب، كل ما أستطيع فعله الآن أن أضيف المزيد من الألم إلى قلبي في صمت قاتل.

لم يعُد بمقدور قلبي أن يعتذر لها عن المزيد، كانت باستطاعتها الكثير ولم تفعل، إنها قررت الابتعاد فجأة، أخذت قرارها بأن تتنحى جانبا ولكن لأي سبب ما زلت أجهل؟! أشعر بأنها اغتالت أحلامي فجأة، إنني محاط بها من جميع الجهات، أشعر وأن البيت على اتساعه لا يسعه أن يتحملني؛ ضيق جدا، أو أن قلبي قد ضاقت به السُبل فانحصرتُ بداخله.

إنني جالس وشريط ذكرياتنا يمر أمامي منذ أن رأيتها في طريقي

إلى الجامعة حتى آخر مقابلة تمت بيننا، الأمر مؤلم جدا فأنا لم يعد بمقدوري أن أحتمل مزيدا من الذكريات، فيكفي لقلبي ما جمعه فيما مضي، إنني أبكي بشراهة وكأن دموعي قُدر لها ألا تنتهي أبدا، أدركني شعور أن بحار العالم قد تؤول إلى الجفاف لكن دموعي لن يُصيبها الجفاف يومًا، وكأن البؤس قد طاب له قلبي مسكنا، قد يئستُ من كل شيء، فما أدركني الفرح يومًا إلا وكان الحزن يتبعه، كُتب عليّ أن أعيش هكذا مقهورا ذليلا.

إنني لا أنام، بل إنني أنتظر أن تؤلمني عيناي من شدة البكاء، وأن يُرهق عقلي من شتات التفكير، وأن ينفطر قلبي من أنين الذكريات، وأن تهرب مني عروقي من نُدرة الطعام، إنني لا أنام بل يغلب النوم هشاشتي التي تتملكني في نهاية كل يوم، هكذا ينتهي يومي، حتى النوم بات بدوره يهزمني!

***

= ايوه يا يوسف إنت فين؟

- أنا في البيت يا تيتا.

= طب أنا جيالك.

- ماشي مستنيكِ تيجي بالسلامة.

بأي شكل سأقابل جدتي؟! أسأقابلها بوجهي الشاحب هذا، أم بعينيّ المُتهالكتين، أم بهذا الجسد النحيف!! إنني لا أريد أن تلاحظ ذلك السواد الذي يغمر قلبي، أن تكتشف حروبي الداخلية عند رؤيتي، إن نظر أحدهم لي لقال إنني نجوت للتو من حرب ضارية مات جميع من فيها وأنا الناجي الوحيد، ولكني مُهترئ تماما.

وصلت جدتي، وقد حاولت قدر الإمكان أن أداري مهالكي عنها وأن أتماسك أمامها، حتى لا تقلق عليّ؛ فأنا آيل للانهيار في أية لحظة.

اقتربت مني واحتضنتني، شعرتُ أن راحة ما قد أصابتني، وأن أمي قد رحلت ولكن حضنها ما زال على قيد الحياة بين ضلوع جدتي، قالت بصوت حنون: «مالك يا يوسف اتغيرت كدة ليه، وضعفت خالص، ووشك أصفر؟» لقد اكتشفت ما بي، وأدركت مخططاتي في مواراة حزني وألمي؛ تماما كما كانت أمي! انهرت باكيا كطفل صغير قائلا لها: «هذا العالم يكرهني يا جدتي، الجميع يرحل عني تباعا، أشعر أنني سيئ؛ فكل من كان بجانبي قد فر مني». وضعت يدها على رأسي وقالت: «إنت أجمل إنسان في الكون ده كله يا يوسف.»

سكتُ ولكني ما زلت أبكي.

= قولي يا يوسف إيه إللي حصل معاك تاني؟

- مريم بعدت عني يا تيتا ومش عارف ليه!

= طب اهدى يا حبيبي.

- هو لسة في حاجة تستحق الهدوء!! أنا منبوذ ومكروه من الكل.

= لا ماتقولش كدة ربنا إللي كاتب كدة.

- طب هو ربنا مش هيكتبلي فرح بقا!!

= إيه يا يوسف هنحاسب ربنا ولا إيه!! إنت أكبر من كدة، ربنا كاتبلك الخير دايما، ولو كان خيرا لبقى يا ابني، إنت لازم تصبر على أي ابتلاء.

- صبرت وصبرت كتير وفي الآخر كسروا قلبي تاني وأنا كنت بحاول ألم الباقي منه، دمروا كل حاجة.

= طب هي بعدت ليه؟

- بتكدب وتقول ظروف ومشاكل وتعليم.

= طب أكيد عندها مشاكل، استنى وهتعرف كل حاجة قريب، ماتستعجلش.

- مبقاش فيا طاقة يا تيتا، مش قادر أستحمل ولا أستنى أكتر، أنا بنهار كل يوم عن إللي قبله ومحدش حاسس بيا.

= لا والله أنا حاسة بيك يا حبيبي، وأنا جنبك ومش هسيبك أبدا

- إنتِ الوحيدة إللي مش هتسبيني، بس كلهم سابوني.

= طب والله ربنا ليكرمك وبكرة تقول تيتا قالت.

- ربنا يكرمني وأروح لبابا وماما وإخواتي.

= بعد الشر يا يوسف، وتسيبني لمين؟ ماتقولش كده تاني عشان مازعلش منك بقا.

- آسف يا تيتا مش قادر وا.لله

= قولنا إيه بقى، ما تهدى إنت مش راجل ولا إيه؟!

- حاضر.

= أيوة كدة وقوم غسل وفوق وتعال عشان جايبالك صينية مكرونة بالبشاميل عاملاها مخصوص عشانك.

- حاضر.

ذهبت إلى الحمام وشعرت أني قد أزحت بعضًا من حزني بين أحضان جدتي، ارتحت بعض الوقت من ذلك الهلع الذي أصابني.

= تعال بقا كل.

- مش قادر يا تيتا.

= طب والله لو ما كلت ما هكلمك تاني أبدا.

- خلاص ماشي.

كنت آكل وأنا لا أستطعم شيئًا، فلا طعم لأي شيء في هذه الحياة، إنها لم تعد تهمني في شيء، ولكني لم أرِد أن أحزن جدتي

معي.

***

تتوالى الأيام ومريم لم تحاول قط أن تحادثني ولو بنقطة، إنني أتألم يومًا بعد يوم، إن حزني في تزايد مستمر، وسخطي على هذا العالم أصبح غير محدود، إنني أتطلع للموت أكثر من أي وقت مضى.

في إحدى أيامي البائسة طرق أحمد باب بيتي قد جاء ليراني:

= إزيك يا يوسف عامل إيه؟

• هكون عامل إيه يا أحمد؛ مُحطم، فاقد للشعور، بائس، منبوذ من الكل، محروم من كل حبايبي، هكون حلو يعني!! إنت بتسأل سؤال تقليدي عشان إنت عارف أنا عامل إيه كويس!

= طب يا يوسف ما تديها فرصة السنة دي وروح اخطبها؟

• أدي فرصة لمين يا أحمد؟! هو إنت صدقت كلامها ولا إيه!، دي بتهرب مني بأي كلام وخلاص، حطت أسباب من دماغها بس في أسباب تانية حقيقية إحنا مش عارفينها، بس هنعرفها قريب أكيد وأنا متأكد.

= ما هو يا يوسف مفيش سبب مقنع يخليها تبعد فجأة وبالشكل ده!

- هو سبب من اتنين؛ يا إما حد زورلها كلام عني ماحصلش، يا إما في حد دخل حياتها.

= إنت واعي يا يوسف للي بتقوله؟! هي ممكن تخونك؟!

- للأسف مفيش غير السببين دول، وأنا مش عارف بالظبط سببها بس هعرفه قريب.

= طب ما إنت لازم تهدى لغاية ما نوصل للسبب الرئيسى، صدقني إللي إنت فيه ده مش هيغير الوضع.

- غصب عني يا أحمد أنا مُنهار، عقلي عمال يشت من التفكير، وقلبي مفطور من فراقها، ونفسيتي تعبانة خالص.

= طب عشان خاطري حاول تتمالك أعصابك، أنت شوفت شكلك في المراية عامل إزاي؟! إنت متدمر على الآخر، وعنيك مابقتش باينة، حرام عليك نفسك.

- هيفيد بإيه شكلي، وهتفيد بإيه الحياة وأنا كل يوم بودع حد من أعزهم لقلبي، لغاية ما قلبي فضي على الآخر؟!

= يوسف في ربنا كبير.

- مش قادر يا أحمد، أنا مابقتش حاسس بحاجة خالص.

= صلِّ يا يوسف، صل ربنا سامعك وشايف كل إللي إنت فيه.

إنه لأمر مُحزن أن تتهاوى حياتي أمامي هكذا وأنا لا أستطيع أن أفعل لها شيئًا، إنها تفقد كل يوم عزيز كان بالأمس بين يديها،

باتت حياتي تقتصر على البكاء على ما رحل، إنها فقدت كل شيء تباعا، أن تُهشم مشاعري على مرأى ومسمع مني، تماما كعمليات القلب المفتوح دون أي مخدر، يتم اقتلاع قلبي من بين ضلوعي وأنا أصرخ ولا أستطيع أن أحرك ساكنا، كل شيء يموت بداخلي ببطء، شعور لا يعيشه الكثير ولكنه أشد أنواع الموت ألما، ذلك الذي يقضي عليك وأنت تشعر به، يختطفك وأنت على علم، ينقض عليك وأنت لا تستطيع المقاومة، كل ما عليك فعله أن تُشاهد كيف يتم اغتيالك.

إنني أجلس وحدي كثيراً وإن هذا الشعور مؤلم ومُطمئن في نفس الوقت؛ فإنني في بعض أوقاتي تستفرد بي ذكرياتي فتُبرحُني حنينا وألما على ما مضى، وفي حين آخر أشعر بأنني عاشق الوحدة حيث لا مزيد من البشر، ولا الكذب، ولا الفقد، وحدى تماما. إن فقدتُ فإنني أفقد شغفي في العودة إلى البشر مُجددا، شيء مُماثل لمن قتل شخصا وفر هاربا بالتأكيد لن يعود مجددا، فإن عاد قد باع حياته لقاء عودته. ربما يكون الهروب مؤلما، ولكنه أشد هونا من البقاء مرعوبا مصابا بالفزع، قد تكون الوحدة في نظر الكثيرين انحدارا تفكيريا، ولكنها هروب حتمي من صدمات الواقع الغادرة.

***

شهور ذات طابع مأساوي قد مرت وأنا أنزف ألما، أستطيع أن أصف لك ما أنا عليه وكأن بي جرحا كبيرا لا يلتئم أبدا ولا يتوقف عن النزيف، يتم القضاء عليّ ببطء شديد، كل ما أستطيع تمييزه في هذا الوقت أنها تبتعد كل يوم أكثر عن سابقه، تهرب مني هي وأحلامي سويًا.

لم يعد يسعني أن أتحمل أكثر، فأنا ما زلت مُتعلقا بها وكأنها ما زالت بجانبي، حبي لها يزداد ولا ينقص وكأن الفراق قد أضاف على حبي لها المزيد، كل شيء يكبر لا يقل، يتفاقم لا يتحجم، ومن هذا المُنطلق شعرت بحاجتي لأن أصل إلى قرار نهائي منها، أن تواصل أو تقتصر فترحل.

أنا لا أجيد البقاء في المنتصف هكذا، أن تبقى بكل ما بك أو ترحل بجميعك. أنا لا أجيد الانتظار، لا أحب أن أكون تائها هكذا؛ لا أستطيع العودة، ولا أستطيع أن أمضي إلى الأمام، إنني أريد منك أن تأخذ قرارا واحدا ينهي ذلك الشك بداخلي؛ أأنت تريد البقاء أو تود الرحيل؟ ألا تتركني بين تقلبات قراراتك، وتغيرات مشاعرك، أن أراك في يوم تهيم بي وفي اليوم الذي يتبعه أشعر وأنك لا تأمل سماع صوتي، هناك شيء يُسمي سعة التحمل يعبر عن مدى قدرة من أمامك على تحمل ما يفوح منك، فصدقني لن أستطيع أن

أبقي طويلا، سينتهي صبري يومًا، وسأخلفك ورائي ولا عزاء لقلبي إن جائني باكيا يترجاني أن أودُك يومًا، كن على ثقة بأن ذلك المُنتصف قد يُصبح نهاية ذات يومٍ إن تماديت في تغيراتك.

***

أخذت عهدا على نفسي بأنني سأصل إلى قرارها النهائي، فلقد سئمت ذلك الأمل الذي ينمو بداخلي! سأفعل كل ما بوسعي لينتهي ذلك الضجيج الذي يُنهك عقلي، لتتوقف تلك الصراعات التي تنهش قلبي، إنني أريد أن أصل لخط النهاية فلقد كان الطريق مؤذيا لأبعد الحدود.

قررت أن أذهب إلى الجامعة لأبحث عنها فهي ما زالت في آخر أعوامها الدراسية، وعندما وصلت إلى الجامعة كانت الذكريات تُحاصرني في كل شبر داخل أرجاء الجامعة؛ كانت عيناي تركضان إلى كل مكان جلسنا فيه، وكان قلبي يبكي لكل حيز قد تراقص فيه فرحا بمريم، وكأن الذكريات لم تشبع من تمزيقها لي في البيت لتواصل تحطيمها لي بالجامعة! وصلت إلى مبنى كلية العلوم وأنا أتذكر أول يوم قد جئت فيه إلى هذا المكان حيث كان قلبي يجرني خلفه بفعل أول نظرة قد تلقاها من مريم، أنين الذكريات يطرق بابي وأنا أبحث عنها، صعدت إلى المبني أبحث هنا وهناك

ولا أفوز بطائل، ولكني جلستُ أمام الكلية مُترجيا العثور عليها، فأنا لن أبرح هذا المكان حتى ألقاها.

قد وصلت الساعة الثانية ظهرا ولكن قلبي لا يريد الرحيل، ما زال الشعور بداخله يؤشر له بأنها ستظهر قريبا، صبرتُ كما أعتدتُ أن أصبر.

وما إن رأيتها تخرج من باب الكلية حتى اهتز قلبي هلعا؛ فأنا لم أرها منذ شهور وكأن عيني لم تصدق أنها هي، حتى قمت بدعك عيني لأصدق إن كانت هي، وبالفعل كانت. وما إن اقتربت منها حتي تغيرت ملامحها، شعرت أنها قد أصيبت بالخوف والذعر وكأنني مُقبل لأقبض روحها، فسارعت بالحديث:

- ماتخافيش أنا هسألك كام سؤال وأمشي على طول ومش هسببلك أي إزعاج.

= لا عادي براحتك اتفضل.

- سؤال وعايز إجابة واضحة وصريحة، إنتِ بعدتِ ليه؟!

= مفيش قولتلك مشاكل كبيرة وكدة.

وما إن كانت مريم تنطق هذه الكلمات بنبرة مُتقطعة ممزوجة

بالخوف حتى لاحظت أنها تُداري أحد أصابع يديها اليُمني، وما إن تمعنت جيدًا حتى أصابني الجنون؛ لقد رأيت بيدها اليُمني دبلة تؤشر بأنه قد تمت خِطبتها.

- مريم إنتِ اتخطبتِ ...!!!!!!!

ومريم لا تُجيب وتنظر إلى الأسفل، لم أصدق ما أرى حتى قلبي كان يود أن يُكذب عينيّ.

- ردي يا مريم وصارحيني مبقاش في مجال للهروب، كل شيء بقا واضح.

= آه يا يوسف اتخطبت.

تحولت الآن شكوك قلبي إلى يقين، وأصبح عقلي غير قادر على استيعاب الكلمات، شعرتُ أنني أقف مع شخص آخر، ولكني تابعت الحديث:

- كان واضح إن هروبك وراه حاجه مخبياها، بعتيني عشان إيه؟؟ شوية فلوس؟! ولا شوية تعليم؟! ولا شوية راحة!! ولا عشان مليش حد، منفعش أكون نسب؟! ولا عشان مُكتئب والدنيا جاية عليا شويتين؟ بعتيني عشان إيه يا مريم!!!

= يا يوسف إنت مش عارف إللي حصلي عشان كل ده!! وماما وبابا أصروا.

- إنتِ لسة ليكِ عين تتهربي تاني، إيه مُحرجة تختاري اختيار من إللي حطيته قدامك؟!! ولا ليه تختاري، نسيت أحطلك خيار

جميع ما سبق، وعشان أشيل عنك الحرج أن حطتهولك واختارته ليكِ!!

= يوسف أنا همشي.

- امشي، امشي يا مريم، ياريتك مشيتِ من زمان، ياريتك ما جيتِ اصلا، روحي إنتِ بقيتِ مخطوبة ولو حد شافنا هيبقى في ضرر عليكِ، إنتِ بقيتِ ملك واحد تاني، بعتِ نفسك وبعتيني في أول حد جه عشان يشترى، للدرجادي كنت رخيص عشان أول واحد يشتري حبي!! يلا معلش المهم إنه قدر يشترى، آسف لو عطلتك، امشي وماترجعيش تاني.

رحلت وأنا أقف مزهولا مما رأيته وسمعته، متأسفا لاعترافي لقلبي بأنه قد تمت خيانته، حتى من تلك التي أقنعته أن ثمة طريقة لإكمال الحياة، وما إن أقنعته بذلك حتى قضت عليه بيديها.

وصلتُ إلى البيت وأنا أتمنى أن يكون الموت ورائي ليقضي على كل ما أعيشه من أسى وفقدان لا يُطاقوا، إنني وصلت البيت وأنا مليئ بالخذلان والضياع، قد نالت كلمات مريم من كل أمل قد ينبت بداخلي تجاه مواصلة الحياة، لقد مات شغف المواصلة بداخلي، يسعني القول بأنها أنهتني تماما وبضربة واحدة.

هاتفي يرن ولا أريد أن أجيب كرهت الوجود، لا أريد خِلطة بأحد بعد اليوم، فقدت ثقتي تماما في البشر وكأنني أصبت بالوسواس البشري؛ أهلع من البشر تماماً كما تهلع الطيور منهم.

أحدهم يطرق علي الباب، فتحت له وإذا به أحمد:

= إيه يا يوسف مابتردش عليا ليه!!

- سيبني دلوقتي يا أحمد.

= ليه إيه إللي حصل؟!

- مريم إللي إنت دافعت عنها اتخطبت.

= إنت بتتكلم جد؟!

- أنا قابلتها من شوية وشوفت الدبلة في ايديها.

= من إمتى الكلام ده ومين؟

- شيء مايهمنيش من إمتى ولا مين، كل إللي يهمني إنها طلعت مخادعة وخانتني وخذلتني وطعنتني، هي طلعت بارعة في الكدب وممثلة من الدرجة الأولى، باعتني يا أحمد وطلعت رخيص أوي.

= أنا مش عارف أقولك إيه!!

- هتقول إيه، مبقاش في حاجة تتقال، كل الكلام خلص، بس أبدا شعور الخيانة عمره ما هينتهي جوايا، شعور هيفضل ملازمني لاخر يوم في عمرى.

= أنا بتأسفلك على كل اللي بيحصل ليك، بس ما زلت عند إن ربنا موجود، خليك مع ربنا يا يوسف.

- ربنا موجود، وأنا صبرت كتير، بس صدقني راحتي بقت الموت وبس، الحياة دي مابقتش تلزمني خلاص.

= استهدى بالله يا يوسف أنت عاقل ومؤمن!!

- ونعم بالله، لله الأمر من قبل ومن بعد.

لا ألم في هذا الوجود قد يُضاهي ألم الخذلان!
نعم، أن تُخذل من أقربهم إليك، من كان بجانب قلبك إن سقط اتكئ عليه، من كان معك عندما رحل الجميع تباعا فنظرت إليه فقال لك: إلا أنا لن أرحل أبدا، من تذوق معك الفقد ورأى كيف حولك إلى فُتات، من أقنعك أن ثمة أبدية قد تدوم بين البشر، من جعل سواد الدنيا ضياءً لك، من أنقذك من حتمية الموت، من روضك عن فكرة الهروب، من رابط على قلبك بالحب، من آمن بك عندما خذلك الآخرون، من أشعل نيران الحب بداخلك، من ساعدك في النهوض من بين أنقاضك، من كان لك كل ما تعنيه الحياة. إنه لمن المؤلم أن يخذلك من لم تتوقع أبدا أن يفعل، إنه خذلان في ظاهره ولكن تشعر وأنه خيانة في باطنه، لقد خان الوعود ونقد العهود، لقد خان الحب وخان قلبي، خان نظرتي إليه كملاك قد أعاد إليّ الحياة، خان حديثه الدائم عن البقاء إلى

الأبد، خان أحلامنا التي شيدها معي، خان توددي إليه وتيمُمي به، لقد خانني في ذلك الوقت الذي أقنعني فيه أن الحياة خالية من الخونة، إنه خذلني وخان قلبي في ضربة مزدوجة أظنها قد قضت على حياتي.

لم تسقط مريم من عينيّ فقط بل سقطت من قلبي، بعد أن أدرك بأنها طعنته في أوج عطائه لها.
ذكرتني تماما بالجواسيس؛ يترعرعون في أوطانهم وبأول فرصة سانحة للخيانة يركضون تجاهها! والوطن؟! أي وطن تسأل عليه لقد أتتهم تلك الفرصة التي يحلمون بها منذ أول مرة قد أدركوا أن الوطن آيل للانهيار في آية لحظة، فهم لا يريدوا أن يضحوا بأية شئ تجاه الوطن، لن يتحملوا تلك المجاعات التي قد تحدث في أرجاء الوطن، سواد الحال الذي قد يؤول إليه الوطن، سوء المنقلب الذي قد يضرب الوطن، لقد ذهبوا إلى حيث النعيم والطمأنينة والحياة الرغدية على حسب تفكيريهم البغيض ولكنهم لا يعلمون أن تراب الوطن أشد رغدا وزهدا من نعيم الآخرين، كانت هي كذلك باعت ذلك الوطن الذي نشأت بداخله وفرت هاربة خوفا من سقوطه ذات ضربة.

تتابع الأيام هي وضرباتها وأنا أفقد كل يوم حزءًا مني، لا يسعني تحمل المزيد، سواد اليوم يزداد في اليوم التالي، خيبة اليوم تنمو غدا، بؤس الحاضر هناك المزيد منه في المستقبل، لا يوجد أي شيء يؤشر بأنني أستطيع المواصلة، هناك شيء فارق أدرك شغفي وقضى عليه.

ربما كان جلوسي في البيت مؤذيا لأبعد الحدود، كل حائط بالبيت يعرض ذكرى لعزيز قد فقدته، رائحته معطرة بالبؤس، أنواره وكأنها تشعُ كآبة، أبوابه تحمل أحلامًا قد رسمتها مُخيلتي ذات مرة حتى جاء الواقع المرير ليُحبط بأقلامه ما خططتُ، مجالسه تتحدث وحدها وكأن ساكنيه لم يرحلوا بعد، غرفتي ما زالت تبكي لحنينها لمكالماتي الغرامية، فناجين قهوتي ما زالت مُحتفظة برشفات فرحي على جوانبها، مُشغل الموسيقى لا يحمل إلا معزوفات حزينة لا يسعها إلا أن تستدعي مزيدا من الذكريات المصحوبة بالأنين، مِرآتي ما إن نظرت بها حتى رأيتهم قد اجتمعوا حولي، إن جلوسي بالبيت سيُصيبني يومًا بالهلع والجنون.

***

كنت أهرب من البيت، وفي إحدي الليالي قررت الذهاب إلى إحدي

المقاهي التي عادة ما كنت أهرب إليها عندما أشعر بالضيق، وما إن دخلت حتى رأيت ذلك العجوز الذي قابلته منذ شهور؛ إنه الحاج حسن على ما أتذكر! اقتربت منه وبدأت الحديث معه:

- إزيك حاج حسن؟

= إزيك يا ابني؟

- فاكرني يا حاج حسن؟ أنا يوسف كنت قعدت معاك من فترة هنا وقعدنا نتكلم، أنا إللي عيلتي توفت في حادثة.

= آه افتكرتك يا يوسف، اقعد يا ابني.

- معلش يا حاج بس حسيت إني عايز أتكلم معاك.

= اتكلم أنا سامعك، مالك في حاجة حصلتلك تاني؟

- أنا اتعرضت للخيانة زيك.

= هم البشر دول مابيشبعوش من الخيانات!! خلاص مبقاش في إنسانية، الحب انعدم، كل شيء مات جواهم، قولي خانوك إزاي يا ابني؟

- حبيتها وكانت كل حاجة في حياتي، كانت من الأسباب إني مركبش مع عيلتي العربية وأموت، إدتني الحياة بعد ما فقدتها، خدت كل عواطفي، مبقاش ليا غيرها، استحملت سواد الدنيا عشانها، كملت حياتي عشان هي كانت عايزاني أكمل، ملتني

بالأمل وأقنعتني إن الحياة بتدي فرصة تانية وإن هي الفرصة التانية ليا، بس في أول فرصة حقيقية في إنها تسيبني سابتني، بعد ما كنت هخطبها بعد كام يوم اكتشفت انها اتخطبت، باعتني في أول الطريق، قتلتني بطعنة في قلبي مكنتش مستنيها منها هي.

= احمد ربنا يابني سابتك دلوقتي أحسن ما تسيبك في نص الطريق.

- أنا بقيت كاره الحياة ومش عايزها، أنا خلاص مابقتش قادر.

= كنت زيك يابني، بس هنعمل إيه هنكمل الحياة برضانا أو بسخطنا، إنت مُجبر على التجاوز في كل الحالات، خليك فاهم كدة كويس، الحياة هتكمل مهما حصل.

- هي ممكن تكمل بس أنا ميت من جوايا، منتهي تماما، هتعدي بس أنا مش هحس بيها

- = حاسس بيك وباللي إنت عايشه عشان عيشته قبلك. أول مرة شوفتك فيها حسيت إن بشوف نفسي من أربعين سنة، كان باين على وشك كل حاجة.

- بس أنا مش هستنى لما أوصل لسنك ده، مش هتحمل إللي إنت اتحملته ده!!

= دي أعمار يا ابني وربنا مقدرلك عمرك وهتعيشه مهما حاولت، أحسن شيء إن أنت تعيشه لوحدك في طاعة ربنا وبس.

- بس قلبي مجروح وعقلي مسروق، هصلي إزاي بخشوع؟! خدوا مني دنيتي وشكلهم هياخدوا آخرتي!

= لو معاك فلوس روح اعمل عمرة يا ابني يمكن ربنا ينقي قلبك ويرجعك لرشدك، إنت كده هتتعب، ربنا هو المهرب الوحيد كنت زيك وروحتله كتير أوي وماردنيش خايب، بعدت عن البشر من أربعين سنة واكتفيت باللي مابيخلذش أبدا، خليك معاه عشان ده دايما جنبك حتى لو إنت بتبعد عنه هو بيقرب، روحله يا ابني وصدقني هتبقي أحسن كتير.

- إن شاء الله يا حاج.

***

لقد كان الحاج حسن محقًا بكل كلمة تلفظ بها، ثمة إله لا يرد عبيده، كان عليّ الذهاب له ولكن ضربات الحياة قد أرهقتني، لم يكن باستطاعتي أن أفعل أي شيء سوى البكاء والنحيب.

***

جلست ذات ليلة من لياليّ المُجحفة، وشعرت أنني لم أقل لها ما بداخلي، لم أعبر لها عن سخطي، ولم أعترف لها بأنها كانت مُمثلة بارعة، فقررت أن أكتب لها رسالة لأقول لها كل شيء وكان مضمونها كالآتي:

«من قتيل الحب إلى قاتله؛ طاب يومك أو ساء لا يهم! إنني وددتُ أن أقدم لكِ بعض الاعترافات التي لم أقلها؛ أنتِ وغدة قد سرقتِ شبابي وهربتِ به، طعنتِني بينما كنتُ أحتضنك، أنتِ خائنة قد خنتِ العهود، مُمثلة بارعة استطعتِ إقناعي بأنكِ تعشقيني كما فعلت أنا، تلاعبتِ بي بينما كنت أعتقد بأنكِ تهيمين بي ولعًا، كان الجميع يقول لي: ستتركك، وكنت أرد بابتسامة تنمُ عن ثقتي بكِ: سنرى، فالويل كل الويل لكِ، ذات ليلة جاءني أخي برواية تحمل في اسمها: (أحببتُ أفعى)، نهرته ودافعت عن النساء جميعا لأجلكِ وللأسف كان مُحقا وخذلتني، لقد لفظتِ سمّكِ بي بينما كان يُخال لي أنكِ ترويني من أنهار حبك! تواريتِ خلف لباس الحب وكشفكِ الزمن أخيرا، أتقنتِ دور العاشق، وضعتِني أعلى قمة أحلامي من ثم دفعتِني من عليها لأسقط ميتا مغدورا بي. أمنتُكِ على قلبي ومشاعري وحياتي وبعتِهم بأرخص الأثمان، خيبتِ ظني وقضيتِ على شغفي، أصبتِني بخيبة أدركت أعماق قلبي، وصفعتِني بصفعة أنهكت حماس روحي ودفنته بداخلي، جعلتِني ألعن كل يوم، تلك الخطوات الساذجة التي أوقعتني بكِ، إنني سأظل أذكرك بالوغدة ما إن حييت، سأقف أمام الله وأقول له: لقد ظلمتني وأذلتني، سأعترف بكل شيء، فلينتقم منكِ القدر وليقتص منكِ الزمن أيتها الأفعى، فلتذهبي إلى الجحيم».

بدموعي وآلامي كتبتُ هذه الرسالة، ولكني في النهاية امتنعت عن أن أرسلها، لا أريد أن تراني ضعيفا هشًا، وأنني ما زلت أتألم لرحيلها حتى ولو كان ذلك حقيقة. إنها لا تستحق كلماتي هذه ولا تستحق اهتمامي، ستعود يومًا باكية، أنا أثق في أن القدر سيقتص حتما.

انقضت شهور وأنا حبيس أملي وسجين بؤسي، إنني أسيرٌ للفقد وللأبد.
تتهاوى حياتي مع مرور الوقت، حنان جدتي لم يُغير من الواقع شيئًا، صداقة أحمد وعونه لم يُشفِ جراحي، إشفاق كل من يعرفني وكلماتهم الرقيقة لم تهون عليّ مصائبي، أسير في اتجاه الهاوية حاملا معي كل هذه النكبات التي تعرضتُ لها.

انقطعت كل معلوماتي عن مريم منذ فتره كبيرة، وإذا بأحمد صديقي يطلب مقابلتي في أحد المقاهي_على حد قوله_ هناك أمر مهم يود أن يقوله لي!
ذهبتُ له على عجلة من أمري، وعلى الرغم مما أعيشه فإن الأمل في أن مريم قد تركت خطيبها ما زال يراودني رغم تنفري منها وسخطي عليها، فإن قلبي لم ينته منها بعد. كان الأمل ينمو مع

كل خطوة أخطوها في طريقي إلى أحمد، أشعر أن الحياة ستعود من جديد، وبينما وصل الأمل إلى قمته وصلتُ إلى حيث أحمد:

- إيه يا أحمد فيه حاجة؟

= اقعد بس، آه في.

- طيب قعدت أهو قول بقا في إيه؟

= بص أنا حسيت إن أنا مُلزم إني آجي أعرفك أيًا كانت الظروف والتوقيت.

- قول يا أحمد انجز.

= ندى عرفت من واحدة صاحبة مريم إن مريم كانت مخطوبة لابن عمها الدكتور إللي مسافر روسيا تقريبا، وهتتجوزه قريب جدا وهتسافر معاه، بص هي أثبتت إنه كان برضاها على حد علمي، والكلام إللي وصلي إنها كانت مبسوطة جدا ولا كانت مُجبرة عليه حتى!! أنا جيت أعرفك عشان ماينفعش أخبي عليك وكدة كدة كنت هتعرف. بص يا يوسف، إنت اخترت غلط، وللأسف إنت بتدفع ضريبة الاختيار، صدقني هي ماتستاهلش زعلك بعد كل إللي عملته معاها، إنت إنسان جميل ومايتعوضش، انساها وادعِ ربنا يعوضك خير، يوسف لو كان خيرًا لبقى، أنا مقدر كويس إنك مُحطم وكان عندك أمل إنها هترجع، بس أنا بتأسفلك على إنها كذبت عليك وورطتك في حبها وهي ماحبتكش من جواها، كانت معجبة بشوية الكلام والحب الصادق إللي إنت كنت بتقدمهولها،

يوسف الحياة عمرها ما وقفت على حد خاصة إللي بيبعونا لازم نتعلم إزاي نبيعهم، ونكون قادرين على رحيلهم بنفس الطريقة إللي قدروا إنهم يسيبونا بيها وبكل السهولة دي. إنت تستحق شخص عظيم يحتضنك، مايكونش حقير بالشكل ده، لف وشك يوسف بعيد عنها وخد بعضك و امش عكسها، لازم تنساها زي ما نسيتك.

- أنا فقدت عيلتي مرة واحدة، يادوب غمضت عيني وفتحتها ملقتهمش جنبي، كنت عايز أنتحر وهي رجعتني عن كدة، كنت هارب من البشر وهي رجعتني ليهم، كنت خايف من الحياة وهي حببتني فيها، هي رجعتني عشان تقتلني هي، موتي ماكنش عاجبها حبت تقضي عليا بشكل تاني هي حباه؛ بالخيانة والخذلان. أنا اتخدعت سنين فيها، ياريتني كنت روحت مع عيلتي لجدتي ولا كملت حياتي، منها لله كانت السبب في كل ده، حملتني إللي عمري ما كنت أستحمله، أنا مش عارف أعبر عن فجيعتي إللي أنا فيها، مقدرش أقول غير حسبي الله ونعم الوكيل.

= ونعم بالله، حسبنا الله ونعم الوكيل.

= إنت لازم تتغاضى عن إللي حصل وتقف على رجلك.

- إنت واعي للي إنت بتقوله يا أحمد؟! هو ده ينفع التغاضي عنه، ولا هو بالسهولة دي، ده مستحيل!

- دي مش صدمة واحدة دي صدمات كتير أوي، مش عارف هتحملها ولا لأ، كل إللي أقدر أقوله يا أحمد إني خايف أكمل.

= ليه يا يوسف؟

- عايزني أكمل فين تاني؟! أقع في مين تاني؟! أفقد مين تاني؟! أتخدع في مين تاني؟! أتخذل من مين تاني؟!

- الموت مرة واحدة أسهل بكتير من الموت الطيئ إللي بييجي بسبب الجروح المتكررة والنزيف المؤلم ده، خبطة واحدة أهون بكتير من كام خبطة، صدقني أنا عارف أنا بقول إيه.

= يوسف إنت أكبر وأعقل من كدة، ملتفكرش أبدًا في كدة، إوعى تضيع حياتك هدر عشان حد مايستاهلش، يوسف إنت مؤمن وماتعملش كدة.

- عارف يا أحمد

***

- ندى أنا قلقان على يوسف جدا.

= ليه يا أحمد؟

- لما عرفته إن مريم هتتجوز وكدة، حسيت من نبرة كلامه وتعابيره إنه ممكن ينتحر.

= لا يوسف عمره ما يعمل كدة،هو عاقل ومؤمن.

- أيوة بس الصدمات دي شديدة أوي ومهما كانت قدرته

على التحمل أكيد صبره هينفذ!
= طب حاول تقعد معاه كتير وهاتله شيوخ يقعدوا معاه.
- أنا فكرت في كدة برضه، بس أنا هحاول أكون معاه طول الوقت.
= ياريت يا أحمد ماتسيبوش، وربنا يسترها.
- يارب، عشان لو حصله حاجة أنا ممكن يحصلي حاجة والله.
= لا إن شاء الله مش هيحصل حاجة.
= إنت سيبه النهارده يرتاح، ومن بكرة حاول تفضل معاه أغلب الوقت.
- ماشي.

***

أشرقت شمس هذا اليوم وينتابني شعور أنه آخر يوم لي في الحياة، قلبي تراقص فرحا حيال هذا الشعور؛ فإنه قد ينتهي من هذه الحياة الساحقة، ربما يكون أجمل ما في هذه الحياة أنها ستنقضي حتما.
نظرت إلى البيت وكأنني أودع أركانه، أصلي آخر صلواتي، أفعل كل شيء وكأنه للمرة الأخيرة، يبدو وأن روحي عازمة على الانتحار آخر اليوم.

تضارب كبير في المشاعر بين الشعور بالذنب والشعور بحاجتي إلى راحة أبدية، عقلي يتآكل من التفكير، وربما قلبي ما زال حزينا على أنه قد لا يري مريم مرة أخرى وللأبد، رغم كل هذا كان لانهزاماتي دورا فارقا في حاجتي إلى الرحيل، كنت مُشفقا على نفسي كثيرا أن أتابع هكذا حياة تقتلني بطيئا بطيئا، روحي الطيبة لا تستطيع تحمل المزيد، تود أن ترحل سريعا، كان قرارا به الشك والكثير من الخوف ولكن لا أعلم ربما قد حان وقت المغادرة.

وبينما كنت أقتنص من كل شيء آخر نظرة منه كان الباب يطرق ومن غيره؛ أحمد جاءني في وقت لا يصح فيه أن يكون موجودا، ولكن لعلي أتأمله جيدًا في آخر لحظاتي.

= إيه يا عم يوسف سنة عشان تفتح؟!

- معلش كنت في آخر البيت.

= ماشي يا سيدي.

- خير في حاجة؟

= لا جاي أقعد معاك شوية، ولا مش عايزني أقعد؟

- لا طبعًا ده بيتك.

= طب إنت أكلت ولا أطلب أكل؟

- لا أكلت كويس.

= يوسف، إوعاك تفكيرك يكون سلبي في يوم، أنا حاسس بيك وعارف مش طايق الحياة، بس لازم تكمل إنت مُجبر.

- عارف يا أحمد.

= لا إنت مش عارف، ومابقتش عارف، أنا حاسس من كلامك إن في شيء مش مُريح فيك!

- شيء مش مُريح زي إيه؟

= بص يا يوسف إنت فاهمني وأنا فاهمك، ياريت تبقى واعي وتحافظ على إيمانك وإياك تفقده لأي سبب من الأسباب، لازم تكون جامد، إياك تخذلني في يوم.

- مش هخذلك يا أحمد متخافش.

= أتمنى يكون ظني في محله.

= أنا هنزل أوصل البيت وأستناك كمان ساعة في الكافيه إللي تحت بيتكو، تبقى تنزلي عشان نتمشى شوية.

- خلاص ماشي.

كلمات أحمد ما كانت إلا لتُزيد الشك بداخلي ولكنها أبدا لن تمنع روحي عن الرحيل.

ربما كان هناك شخص آخر أحتاج لمحادثته قبل الرحيل؛ إنها آخر

ما تبقى من أمي_ جدتي_ قررت مهاتفتها:

- أيوة يا تيتا:

= أيوة يا يوسف يا حبيبي:

- إزيك عاملة إيه؟

= أنا حلوة يا حبيبي وإنت عامل ايه؟

- أنا الحمد لله كويس.
- خدي بالك من نفسك وصحتك يا تيتا.

= واخدة بالي يا حبيبي، المهم إنت إللي تاخد بالك من نفسك كويس وتاكل كويس.

- حاضر.
- ودايما ادعي للي بيغلط في الدنيا إن ربنا يسامحه في الآخرة، في ساعات ناس بتغلط غلط كبير أوي بس بيكون غصب عنها، فادعيلهم ربنا يسامحهم ويتخطى عن أفعالهم
- = يارب يا ابني، بس ليه الكلام ده يا يوسف مش عوايدك تقول كلام زي ده!!
- أصل في واحد صاحبي ظروفه صعبة وبعيد عن ربنا وبيرتكب غلطات كبيرة بس هو غصب عنه وهو طيب جدا، فقولت تدعيله إنتِ.

= ربنا يهديه يا ابني ويسامحه.

- وماتنسيش يا تيتا تدعي للي ماتوا واللي هيموتوا دايما، عشان الدعوة هي إللي باقية للي مات.

= بدعي والله يا ابني، ربنا يرحم الجميع برحمته.

- أنا هقفل بقى عشان نازل هتعوزى مني أي شيء؟

= آه يا يوسف.

- إيه؟

= خد بالك من نفسك كويس.

- حاضر يا تيتا حاضر.

كنت أستمع لكلمات جدتي وأنا أتمزق من الألم، لأنها لا تعلم أنها آخر كلماتي لها. شعرتُ بالأسف تجاهها، كذبتُ عليها وعلى أحمد على غير عاداتي، قد غيرت الحياة طبيعتي وطمستني بالخوف؛ أخاف الحقيقة وأخاف الاستمرار هكذا، بشعور ممزوج بالأسى والكذب ودعتهم ولكن كان عليّ أن أترك لهم رسالة أبرر فيها رحيلي وأوضح فيها مأساتي، فخططتُ بيدي المُرتعشة هذه الكلمات التي كُتبت بدموع الفراق وألم الرحيل:

«إنني آسف على قول الآتي ولكني مُجبرٌ على الاعتراف؛ إن الحياة قد سلبتني أعز ما أملك، ولقد تفنن البشر في تفتيتي إرْبًا إرْبًا، لقد تم خذلاني من أقربهم إلى ضعفي_ أقصد إلى قلبي، اشتدت عليّ

المِحن تباعا دون رأفه، وضاقت بي السُبل حتى دُفن بجوفي الأمل، صدمات لا تُحتمل هشمتني حتى قدميّ لم يعُد باستطاعتهما أن يحملاني، أصبحتُ عبئا على جميع من حولي ومثالا لكل من أراد أن يستدعي بعضًا من الشفقة، تلك النظرة التي كانت تخترقُني من أولئك المشفقين عليّ أخجلتني من حالي، تمت سرقة أحلامي أمام عينيّ ولم أستطع أن أنقذهم، ودعت بيديّ الراحلين عني قصرا بكل أسى، كلما حاولت النهوض أرداني أحدهم أرضا مرة أخرى وكأنهم ينبذوني ويكرهوني، نال مني شعور الرعب والفزع وكأني في غابة مليئة بالوحوش جميعهم يروني فريسة سهلة المنال، لقد نهشوني حتى أفرغوني، وطاردوني حتى أرهقوني، لقد تابعوا إرهابي حتى أجبروني على الفرار، أن أكون هاربا للأبد. أنا اليوم طريدهم وفريستهم، لن أترك أحدا ينال مني أبدا، سأنال من نفسي على أن ينال مني أحد، سأرحل بنفسي وسأقضي على روحي، إنني اليوم أخبركم بأني سأرحل عنكم فائزا؛ فلم يستطع أحدكم أن ينال مني. إنني أرحل اليوم مرفوع الرأس، وداعا لكل من أحبني، وأسفا لمن حرمته من فرصة نهب المزيد مني، لن أشتاق إليكم.»

فرغتُ من كتابة هذه الرسالة وتركتها على الطاولة، سأتجه لأصعب شيء قد يقوم به الإنسان؛ أن يقضي على نفسه بيده، أن يفعل أكبر المفاجع، أن يُقدم الإنسان على أسوأ قرار في حياته،

أن يخرج عن دينه، وأن يعصي ربه، قرار أشعر بمرارته وفي نفس الوقت بحتميته، فطاقتي قد نفذت والحياة تركتني وحيدا مُحاطا بالذكريات البائسة، يؤسفني أن أعترف بأنه قد حان وقت الحسم.

هناك طرق عديدة للانتحار ولكني اخترت أهونها حتى لا أصيب من حولي بالفزع؛ أن أنتحر بطريقة سهلة، إنه الموت حتى في الذهاب إليه نختار أسهل الطرق.

لا أعلم كيف سأنتحر ولكن خطرت ببالي فكرة ما؛ أحضرت حبلا وربطتُ يدي من منتصفها بشدة حتى برزت عُروقي، أحضرتُ سكينا ونظرت حولي وأنا أبكي، الشك يتملكني، الرعب من مُلاقاة ربي يُفزعني، الدماء تفور بيدي، أقول بصوت مُتهدج: «آسف يا أمي ماقدرتش.» أقترب مرة من فعلها وأتراجع في أخرى، الشك يُسيطر على ذهني، لم أشعر بما يحدث وبصوت مُرتفع مُخيف يملؤه الضجر أقول مريم، والسكين قد فعلت فعلتها دون أن أشعر وكأن أحدهم قد فعلها نيابة عني، أنظر ليدي والدماء تتدافع فورانًا منها، ومن هول ما رأيت أصبتُ بفقدان في الوعي وكأن الموت سيأخذني بدون عناء.

على الجانب الآخر أحمد شعر بأن يوسف تأخر قليلا، قرر أن يُهاتفه ويوسف لا يرد، لقد فزع أحمد وشعر بأن شيئا ما قد أصابه، ركض إلى بيت يوسف يطرق الباب بقوة ولا أحد يُجيب، تملكته قوة جنونية وقرر أن يكسر الباب، حاول تباعا حتى فعل لم يُصدق ما يراه أمامه؛ يوسف ملقىً على الأرض يكاد يسبح في دمائه، أحمد يصرخ والفزع يتملكه ينظر إلى يوسف ويبكي، لا وقت لذلك شعر أنه ما زالت به الحياة، حمله وركض بجنون وكأنه يحمل طفلا، يركض ويوقف إحدى سيارات الأجرة يقول له: «اطلع بسرعة على المُستشفى ماتقفش لحد ولا حتى إشارات المُرور أقرب مُستشفى بسرعة»، ينظر ليوسف المُطلخ بدمائه ويحضنه وهو يبكي: «ليه يا يوسف عملت كدة، إنت وعدتني إنك مش هتعمل كدة، لو كانوا كلهم سابوك ماكنتش هسيبك، ليه عملت كدة؟؟ قتلتك الخاينة، والقدر حرمك من عيلتك، بس ليه يا يوسف؟ هتقوله إيه لو رحتله؟؟ حرام عليك يا يوسف مكنش ينفع تعمل كدة!! يارب إديله كمان فرصة، يارب استرها يارب، يوسف اجمد إحنا هنوصل أهو، هتبقا كويس صدقني، معلش لو قصرت معاك أنا غلطان إني سبتك الساعة دي حقك عليا، أنا بحبك يا يوسف بحبك، ماتسبنيش يا يوسف أنا معاك، امسك نفسك بقا، طول عمرى أعرف إنك راجل، والله لو ماجمدتش ما هكلمك تاني وهزعل منك. فاكر لما كنا مع بعض في المدرسة

وكنت بغتت عليك وآخذ سندوتشاتك؟ مش هعمل كدة تاني وماتزعلش كنت بهزر والله أنت عارف إني عمرى ما زعلتك، عايز تسيبني ليه يا يوسف ليه؟!»

وعندما كان أحمد يتلفظ بكلماته الحارقة حتى وصلوا المُستشفى، يحمل يوسف ويركض بشدة من باب المُستشفى ويصرخ: «الحقوني بسرعة»، أحد المُمرضين يركض ويضع يوسف على العربة ويدفعه بشدة إلى غرفة العمليات، وأحمد يركض تجاه الطبيب: «الحقه يا دكتور حاول ينتحر وفقد دم كتير الحقوه بسرعة.» يجاوب الطبيب: «حاضر حاضر» «كياس دم بسرعة»، ودخل يوسف غرفة العمليات وأحمد يجلس على الأرض باكيا في مشهد مؤلم لأبعد الحدود.

مرت ساعات ولم يخرج أحد من غرفة العمليات، أمل أحمد يتقلص رويدا رويدا، وبعد مدة خرج الطبيب ليطلب المزيد من أكياس الدم، أحمد فصيلته مُماثلة لفصيلة يوسف، يُسرع ليقول: «أنا زيه خدوا مني إللي إنتو عايزينه»، وسحبوا من أحمد أكياسًا من الدماء.

***

وبعد فترة قابل الطبيب أحمد:

- إيه يا دكتور خير؟

= الحالة صعبة وفقد دم كتير جدا، إحنا عملنا كل اللازم وهو دخل العناية ومش مُنتظر غير الدعاوي في إنه يقوم، إن شاء الله خير أنا مُتأمل خير.

- يارب يا دكتور يارب.

أحمد يُصلي ويبكي، ويوسف ما زال ينتظر قرار ربه أسيُعطيه فرصة أم انقضت فرصه في الحياة؟ فقط الجميع يتأهب قرار الخالق.

مرت الليلة الأولى بكابوس قد عاشه أحمد وصفه بأسوأ أيام حياته على الإطلاق، ما زال يوسف لم يستفِق من تلك الغيبوبة، ولكن أمل أحمد ما زال موجودا يدعو الله أن يرده سالما.

***

وبعد ثمانية وأربعين ساعة كان أحمد مع موعد مع خبر من الطبيب:

- إيه يا دكتور الجديد؟

= الحمد لله يوسف حالته اتحسنت كتير وفاق بس هو لسه مش مُدرك الوضع، بكرة ممكن تدخل تشوفه بس ماتكلموش.

- ألف شكر وحمد ليك يارب، الحمد لله، طب كدة هو هيبقى كويس يعني؟

= آه إن شاء الله، تقريبا مات ورجع كان مفقود فيه الأمل دي معجزة.

- الحمد لله الحمد لله.

كان أحمد فرحًا جدا بهذا وصلى فرحا وشكرا لله، وبعد مرور اليوم دخل على يوسف يُقبله ويقرأ له القرآن وخرج سريعا.

تمر الأيام ويوسف يتحسن حتى لف أفاق كليةً، ولكن الممرضات لاحظن عليه شيئًا غريبا وكأنه يتفوه ببعض الكلمات وأبلغن الطبيب بذلك، وفحصه الطبيب جيدًا ووجده ينطق بعض الأسماء، فطلب من أحمد أن يقابله على انفراد.

= أنا عايزك تحكيلي كل إللي حصل مع يوسف.

- بص يا دكتور اختصارا؛ هو فقد عيلته مرة واحدة ماتوا في حادثة من سنتين، كلهم ماتوا في الحادثة هو فضل لوحده عايش، وكان بيحب بنت كانت أمله الوحيد في الحياة، وقرب يخطبها يمكن تداوي جروحه وتساعده إنه يكمل الحياة بس للأسف خانته واتجوزت وسافرت، وكانت صدمة ليه على إثرها

قرر ينتحر.

= آه وهي دي بقى إللي اسمها مريم إللي بيقعد يرددها؟

- آه.

= طب أنا حابب أعرفك شيء؛ يوسف دلوقتي بقا مُصاب بشيء ما في عقله من أثر الصدمات دي، الشيء ده تقريبا هو إللي أجبره على الانتحار، صدمة كبيرة على دماغه، وأنا كدكتور مسئوليتي سلامته فأنا حابب أفهمك نقطه؛ بصراحة أنا مش مُتأكد من صحة عقله خاصة إنه انتحر، ومش بالساهل هيخف وأسيبه يعرض نفسه للانتحار تاني، ربنا أعاده للحياة بمعجزة، أنا بعد ما يخف هكتب التقرير ده وهحوله لمُستشفي الأمراض النفسية لأنه فعلًا أصبح مريض نفسي.

- لا يا دكتور يوسف عاقل صدقني والله.

= عاقل إيه بس ده انتحر!!

- والله عاقل بس إنت شايف إللي حصله!!

= بص يابني هو هيروح المُستشفى وهناك هيتأكدوا من كل شيء، وصدقني هيكون في مأمن من إنه يحاول ينتحر تاني، لو لاقوه بقا كويس وسليم مية في المية هيطلعوه صدقني والله.

= يعني مفيش أمل إنه يخرج يا دكتور؟!

- لاماينفعش أغامر لأني هتسأل عليه يوم القيامة لو حصله شيء تاني.

= ماشي يا دكتور شكرا وكتر خيرك.
- الشكر لله يا ابني.

هكذا أراد القدر أن يزُج بيوسف في مُستشفى الأمراض النفسية.

= حمد الله على سلامتك يا يوسف.
- الله يسلمك يا أحمد، إنت إللي أنقذتني؟
= آه.
- ليه يا أحمد كنت سيبني!
= أسيبك يا يوسف وأنا أغتت على مين بقا؟!
- شايف إني أستاهل؟!!
= إنت تستاهل كل خير، والحمد لله إن ربنا رجعك بالسلامة.
- هطلع إمتى؟
= رافضين يطلعوك وخايفين عليك.
- أيوة هفضل هنا مثلا!!
= للأسف إنك انتحرت شكك في قدراتك العقلية وقرروا يحولوك لمُستشفي الأمراض النفسية.
- أنت بتقول إيه!!
- أنا مش مجنون!!
= اهدى بس يا يوسف هم بس هيكشفوا عليك ويفحصوك

عشان ماتكررش العمل ده تاني.

- يا أحمد دول هيسجونني في سجن كدة!!

= لا الدكتور أكدلي إنهم عايزين يضمنوا سلامتك وإنك ممكن متكررش الفعل ده تاني.

- أيوة هقعد قد إيه يعني؟

= ماتقلقش أكيد مش كتير يعني هم هيحولوك كمان كام يوم، متخافش أنا جمبك.

- ياريتك ما أنقذتني يا أحمد.

= يوسف لو قولت كدة تاني مش هكلمك تاني ومش هسامحك.

- ماشي يا أحمد.

***

ماذا تُخبئ لي الحياة؟ مازلت لم أره بعد؛ عائلتي والتهمهم مني التراب فجأة، فتاة أحلامي وحبي الوحيد خانتني وباعتني في أحلك الظروف، انتحار واقتراب من الموت لكن الله لم يأذن برحيلي بعد، وضعي بمُستشفى الأمراض النفسيه لينعتني الجميع بالمجنون!! ماذا عساكِ أيتها الحياة أن تريني؟! ألا يكفيكِ ما أخذتيه؟ لم أر في حياتي أفجع مما أعيشه!

وبعد مرور الأيام تم ترحيل يوسف إلى مُستشفى الأمراض العقلية

ليدخل يوسف إلى المُستشفى، ينظر للمرضي وينظر لنفسه، يشعر بنوبة حُزن لا تُطاق ولكنه تأكد أنه مُجبر على هذه الحياة.

وفي أول أيامه بالمُستشفى لم ير أمامه مُجرما في حقه إلا سواها؛ مريم التي قتلته بالداخل وتركت ظاهره يتألم هكذا.

يردد بداخله كلمات غاضبة: «لقد قادتني إلى هنا، قادتني إلى هنا، قادتني إلى هنا.»

***

أذاق القدر الذل ليوسف وجعله هشًا ضعيفا، لقد عانى يوسف الأمرين في حياته وتلوع فيهم صراخا و ألما، كان الفقد يلاحقه أينما حط، كُتب عليه أن يعيش شقيا لا يرى الفرح يومًا إلا وتبعه حزن شديد! وصل يوسف إلى إحدى مراحل الذل متمثلة في وصوله إلى مستشفي الأمراض النفسية.

أول أيام يوسف بالمستشفى يجلس وحيدا مُرتديا ذلك الزي الأبيض التقليدي للمرضى، ينظر حوله، يشعر بالأسى مما قد وصل إليه، يتساءل كيف كان هذا؟! متي حدث هذا؟! من كان سببا في هذا؟! لماذا حدث هذا؟! ضجيجًا في رأسه وصراعات صوتها

يكاد يخترق عقله، أدرك بعد تفكير عميق أن مريم كانت سببا في كل هذا، الويل كل الويل لها، لقد ركلته من القمة إلى القاع، من عاشق مُتعلم صاحب أحلام إلى مجنون يحاول قتل نفسه، ماذا عليه أن يلعن؟! أيلعن الحب، أم يلعن سقوطه بها، أم يلعنها هي، أم يلعن أي شيء!!

يوسف يحدث نفسه:
كل ما عليّ فعله أن أدعي الله أن يُرد لي حقي يومًا، أن يشفي غليلي، أن يقتص لي منها، أن تشعر بما شعرت به، أن تتذوق مما ذوقته، أن ترى الرعب كما رأيته، أريد فقط أن تُذل كما فعلت بي، يا الله إنني عبدك المظلوم وأشكو لك ظالما قد كسر ضلوعي ألما وأفقدني شغفي في المواصلة؛ يا الله أسألك مردة المظلوم، يا الله أنتظر يوم التشفي.

يوسف يخاف من المرضى كثيرا، هو لم يفقد عقله أبدا ولكنهم من حوله قد فقدوه؛ كلما اقترب منه أحدهم هلع منهم، ينزوى في ركن وحده حتى جاءه أحدهم يومًا قائلا له:
= ماتخافش مني أنا شايفك خايف من يوم ما جيت.
- لا عادي مش خايف.
= الخوف بيبان في العيون، الخوف ده أكتر شيء بيكشف الإنسان

ويورينا قد إيه هو ضعيف مش قادر يواجه، عارف هتقول في نفسك دلوقتي ده مش كلام مجنون، بس فعلًا أنا مش مجنون زي مانا شايفك كدة؛ مش مجنون..

- أنا جيت هنا غصب وأنا مش فيا حاجة.

= وإنت فاكر إن كل إللي هنا مجانين؟! أنا هقولك حاجة واحدة بس: كل إللي هنا هربانين.

- مش فاهم.

= مش هفهمك هتفهم لوحدك مع مرور الأيام، أنا اسمي أنس وإنت؟

- أنا اسمي يوسف.

= عاشت الأسامي يا عم يوسف، ياريت ماتخافش من هنا ورايح، عاملهم كلهم وكأنهم جايين ظلم زيك يمكن كتير منهم زيك! حاول تختلط عشان تتعايش.

- حاضر إن شاء الله.

= هسيبك أنا دلوقتي ونبقى نقعد في وقت تاني نتعرف.

- ماشي.

يوسف فحص حوار أنس مُجددا بعد رحيله، وتعجب من كلمة «هربانين»، ولكنه لم يحدد مُراد أنس، كل ما استطاع إدراكه حقًا أن أنس ليس مريضا عقليا، وعلى ما يبدو أن هناك الكثير مثله!

كلما جاء الليل على يوسف بالمستشفى يشعر بثقل لا يُحتمل فوق قلبه، يبكي كثيرا وكأنه جاء إلى الحياة ليبكي فقط، ليفقد فقط، ليُخذل فقط، ليُذل فقط، ليُظلم فقط! يشعر وأنه جاء إلى هنا بالخطأ، لم يكُن عليه القدوم إلى هذه الحياة. كلما تذكر مريم يضرب رأسه وكأنه يُحاول أن يُسقطها من رأسه هي وذكرياتها، يحن إلى عائلته ويشتاق إلى حديثهم، حتى جدته باتت بعيدة عنه ويشتاق إليها، أحمد الذي هون عليه الكثير لم يعد بموسوعه أن يظل بجانبه، بات وحيدا بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ وحيدا من الأهل، وحيدا من أصدقائه، وحيدا من حبه، وحيدا من مشاعره وعواطفه، وحيدا في مجالسه، باتت الوحدة هي موطنه الفعلي، ما كان يخشاه ذات مرة أصبح واقعا مُرا قد أضحى عليه.

قرر أخيرا أن يقترب من هؤلاء المرضى، ربما قاده الفضول تارة وربما قادته الوحدة المُضنية تارة أخرى، تحدث مع هذا ومع ذاك، استأنسهم وأصبحوا كل شيء له، وكان أنس صديقه المقرب كما كان أحمد في الخارج، كلاهما روى قصته للآخر، وكان دخول أنس للمُستشفى يحمل علامات استفهام كبيرة؛ إنه أيضا تم ظلمه بطريقة مؤسفة.

كان أنس يُحب فتاه ويعشقها ولكن تقدم لخطبتها أحد القادة في الدولة، ولكنها رفضت لحبها لأنس، وعلم أنها تُحب أنس فأجبرها على الزواج منه، ولكنها عاندت كثيرا حتى قرر ذلك الظالم أن يزُج بأنس إلى هنا بالمستشفى بداعي مرض عقلي تم تلفيقه إليه، وقال لها: إن لم نتزوج سأقوم بقتله؛ فقررت أن تتزوجه خوفا على أنس. قصة أخرى توضح كم أننا نعيش في غابة!! القوي فيها يلتهم الضعيف، والرخو فيها ينتظر قضاء الله ومردتة للظلم. نحن مُجبرون على أن نُكمل الحياة وتحمل ضرباتها وابتلائاتها ترجيا في الآخرة ليس إلا.

وتمر الشهور وتنقضي ويوسف ينخرط بهم أكثر فأكثر، ليتحدث ذات ليلة في مذكراته التي اعتاد أن يكتب فيها كل ليلة:

«إن هؤلاء ليسوا مرضى نفسيين، إنهم أدركوا سواد الحياة و حقيقتها ففروا هلعا إلى حيث هنا، هنا ليست مُستشفى الأمراض النفسية؛ إنها مقر الهاربين من الواقع، من أدركوا ظُلم البشر ومن أدركوا أنانيتهم الجاحدة، هؤلاء هم من ركضوا رعبا و وذعرًا من خذلان البشر المُتكرر، هؤلاء قد عبئتهم الحياة بالمهالك تباعا حتى اختبئوا هنا خوفا من المزيد، هؤلاء صدمهم الواقع المرير فتواروا منه هنا، ضربات مُتتالية علي رؤوسهم لم تُفقدهم صوابهم بل

أفقدتهم مشاعرهم فاحتموا حيث هنا، خيانات بالخارج وظلم غير هين وجبابرة التهموا المُجتمع؛ كان شيئا يدعوا للهروب إلى هنا، أحلام تتدمر أمام عيونهم وآخرون يسلبونها منهم دون عناء ربما أيضا كان سببا مُقنعا للفرار إلى هنا. صدقوني هنا ليست مُستشفى الأمراض النفسية؛ بل هنا يعيش مُدركو الواقع و فاقدو الحيلة، هنا حيث يكون الضعفاء المبتور حقوقهم.»

ربما لم يكن يوسف يشعر بمرور الأيام بداخل المُستشفى، كانت الزيارات العائلية للمرضى أكثر شيء مُحزن له، كان في أول الأمر جدته وأحمد مواظبون على زيارته، ولكن مع مرور الوقت أصبحت جدته غير قادرة على زيارته، وأحمد تزوج من ندى وأنجبا طفلا قد شغل حياتهما، ولكنه كان يزور يوسف من حين لآخر. تأسف يوسف على حياته مرارا وتكرارا، شعر بالوحدة التي لم يشعرها أحد قط ولن يشعرها أحد..

كان يوسف جالسا وتذكر أنه قد قرأ عن اسمه ذات مرة أنه يُضرب به المثل في القحط والشدة؛ أي أن اسمه يُعبر عن الحزن، حتي إسمه ينمُ عن الحزن والأسى! لقد أدرك لماذا سُمي بهذا الاسم في أواخر عشرينياته، فماذا سيفعل به الزمن في منتصف الأربعين؟!

وكتب في إحدي مذكراته أيضا أن مريم نالت اسما لا يُشبهها؛ فمريم تعني خادمة الله، فكيف تكون وقد ظلمت عبدا أعطاها قلبه فحطمته؟ لقد خُدع يوسف في كل شيء بها حتى اسمها كان خادعا!

إن يوسف قد طاب لقلبه المكوث في المُستشفى حيث لا مزيد من الفقد ولا الخذلان، هنا حيث الطمأنينة، ولكنه كان يشعر بأنه مسجون قهرا وقصرا؛ سجنته مريم حيث كان حبها طريقا مُعبدا إلى هنا، كبلته بالداخل بقيود حبها الخادع، ينتابه شعور الغدر كلما نظر حوله، ويتملكه إحساس الظُلم كلما تذكر كيف دخل إلى هنا، ناهيك عن كل ذلك سجن الذكريات الذي لا يستطيع الفرار منه كلما حاول باغتته ذكرى تعيده حيث كان.

كانت الأيام والشهور تمر سريعا جدا، فها قد أضحى ليوسف عامين بداخل المُستشفى قد شعر فيهم ما لم يشعره أحد بالذل وسوء المنقلب، وأدركه البؤس كما لم يُدرك أحد، قتلته الوحدة، وشحب الزمن بقساوته ملامحه، تنظر بوجهه تشعر أنك بحاجة للبكاء، عيونه تستطردك للشفقة والتعجب، لحيته قد ترعرع بها بعض المشيب، جسده النحيف هذا مُعبأ بأكوام من الكآبة

والخذلان والفقد ربما لن يراها أحد! تشعر وأنه مُطارد دائما من نفسه القديمة، هارب تماما من كل شيء، حتي وأنت تنظر إليه ربما تجده يهرب من عينيك!

رغم جحوده على الوحدة واستنفاره منها إلا أنه قد وجد فيها الطمأنينة، ربما وجد بداخلها الكثير؛ لا هروب، لا فقد، لا ظلم، لا خيانة، ولا مزيد من الخداع. أدرك أن الوحده بقدر وحشتها إلا أنها ذات طابع مُريح يكون بها في مأمن من البشر، في مأوى من الخذلان، غير مُعرض لمزيد من الصفعات، يتنحى عن مشاعره المدفونة حتى وإن طاردته فلا مانع من مواجهتها وهزيمتها؛ حيث إن الوحدة تجعلك قويا بما يكفي لتهزم مشاعرك المؤذية. في الوحدة ربما يُسيرك عقلك وينزوى قلبك بعيدا، كفى له اختيارات فادحة قد أجبرته على هذه الوحدة. في الوحدة الكثير من السخط على البشر، ربما تراهم بداخلها بصورة أوضح تماما كما تبين ليوسف؛ وحوشا ضارية تبحث فقط عن فريسة ضعيفة سهلة المنال. ربما تكون الوحدة هربا من واقع أشد إيلاما من وحشتها.

***

وفي إحدى الزيارات العائلية للمرضى التي عادة ما تتم في حديقة واسعة، كل عائلة تقريبا تجلس مع المريض على طاولة ما في

زيارة تكون تحت رقابة مشددة جدا حتى لا يتم حدثا خارج من المريض، بالطبع أصحاب الدرجة القصوى من الأمراض النفسية لاتتم لهم الزيارة إلا عن طريق عازل بينه وبين الزائر لأن أفعاله أحيانا لا يكون مُدركها.

عادة ما يكون يوسف جالسا في ركن من هذه الحديقة بعيدا عن ضجيج العائلات بالتحديد تحت شجرة تتميز بالهدوء، يقرأ مُذكراته الأسبوعية ويكتب المزيد بها، وبينما كان هو جالسا رأي طفلا صغيرا يقترب منه، وليس من العادي أن يترك الأطفال هكذا بالداخل! كان طفلا يحمل في عمره ما يقارب العام والنصف، اقترب منه مُبتسما بكل لطافة، شعر يوسف وأنه قد جاء خصيصا لزيارته، وهنا سأله يوسف:

- اسمك إيه يا جميل؟

= اسمي مالك.

وبينما كان يوسف يبدأ حواره مع مالك سمع صوتا من خلفه يقول: «مالك تعال هنا»، ربما شعر يوسف بالأسف وأنه لايستطيع الالتفات لأنه عادة ما يشعر بالخجل تجاه ثيابه التي توحي بأنه مريض نفسي. ذهب مالك إلى تلك التي كانت تُناديه، كان يوسف في هذه يتذكر بأن مريم قد قالت له بأنها تُحب اسم مالك، فنظر لتلك المرأة وهي تمسك بيد الطفل وقد ابتعدت بخطوات بعد أن التفتت بعيدا عنه، ود أن يقول لها أن أسم مالك جميل

وأنه يُحبه، فنظر تجاها قائلا: «جميل اسم مالك ربنا يحفظه». كانت المرأة قد سمعت هذه الجملة فالتفت وهي تتقول «شكرًا ربنا يخليك»، وما إن التفتت ونظرت إليه ونظر إليها وعيناهما تتسعان من الانبهار!!

هي تنظر له وتدقق النظر جيدًا بعين مفتوحة على مصرعيها، وفم لا يسعه أن يُغلق لتقول بصوت مُتعجب: «يوسف!!!» كان هو بدوره لا يُصدق عينيه وينظر إليها بكل أسى وتعجب، وهنا تثاقلت عليه دموعه في هذه اللحظات لتتابع هي حديثها:

= يوسف إنت إيه إللي جابك هنا!!

تماسك يوسف دموعه ونظر إليها جيدًا ليُجيبها:

- أول مرة أشوف قاتل بيقول لقتيله مين إللي قتلك!! هي البجاحة وصلت لكدة؟! أظن القدر ساق ابنك عشان ييجي لغاية هنا ويجيبك ليا، ماتخافيش أنا مش هعملك حاجة، أنا سألت ربنا يقتص منك وأنا واثق إنه هيقتص. عارفة مين إللي جابني هنا؟ اليوم إللي اتأخرت فيه وركبت جمبك الميكروباص، عارفة إيه إللي جابني هنا؟ قلبي إللي حبك بكل صدق. عارفة إيه إللي جابني هنا؟ إني ماسمعتش كلام أمي وركبت معاهم وماعصتش كلامك. عارفة إيه إللي جابني هنا؟ كدبك وخداعك وخيانتك.

عارفة إيه إللي جابني هنا؟ تمثيلك في حبك ليا. عارفة إيه إللي جابني هنا؟ أنانيتك ووعودك الفارغة وحبك لذاتك. عارفة إيه إللي جابني هنا؟ غبائي وسذاجتي فإني خليت إنسانة مُخادعة زيك تمتلك قلبي وتلعب بيه زي ما هي عايزة، عارفة إيه إللي جابني هنا؟ عنادي مع الكل على إنك مش هتخذليني وخذلتيني، يمكن عشان عنفت أخويا حمزة على الرواية إللي عنوانها (أحببتُ أفعى)، وقولتله لأ هم مش كدة بس للأسف كان عنده حق -الله يرحمه- وطلعتِ أفعى، ها لسة عايزة تعرفي إيه إللي جابني هنا؟!! إللي جابني شخص أناني عاش حياته وفضل المظاهر ولذات الحياة عني وعن حبي وعن تضحياتي عشانه، شخص بتمنى إني كنت اتعميت ولا إني أشوفه، شخص واقف قدامي دلوقتي وبعد كل ده عامل نفسه مايعرفش حاجة! منه لله دمرني وسلبني كل شيء.

كانت مريم مُنهاره تماما في البكاء ولم تستطع التحدث، إلا أن ما يغلي بداخل يوسف وما كتمه من سنين استدعاه لمواصلة كلامه المدفون بداخله.

- عارفة أنا ماسك إيه في إيدي؟ مذكراتي إللي بكتبها هنا من سنتين فاتوا، كل صفحة فيها كان فيها اسمك وكلام عليكِ، كنت بقول ملوش لزوم عمرها ما هتشوف المقهور ده، بس جه اليوم

إللي هقرالك فيه جزء منه، لازم تسمعيه قبل ما تمشي.

«عندما أقابلها سأخبرها بأنها وغدة أرسلتني إلى الكهولة مُبكرا وهي على ضفاف الشباب تلوح لقاربي المهاجر، سأعترف لها بأنها طعنتني بسكين الغدر بينما كنت أحتضنها، بأنها سحبت روحي بيدها وهي تغادر وأنا أبكي أمامها مثل الأطفال، صفعتني بقوة بينما كنت أغمض عيني لأتأمل جمال حبنا، ركلتني من قمة أحلامي بينما كنتُ أساعدها على الصعود معي،خذلتني وخذلت ثقتي بها،خانت وعودها وخانت حبي لها، هزمتني شر هزيمة، هشمتني أنا وأحلامي سويًا حتى أصبحت رخوا كلما تذكرتُ اسمها أجهشت بالبكاء، حرمتني من شبابي وجردتني الحياة، أجبرتني على خيار الرحيل ولم تستثن لي آية خيار، تركت الوحدة تنهش مشاعرى وتستفرد بي أنا وذكرياتها، سمحت للفقد بأن يكسر ضلوعي، دفنت بقلبي شغف المواصلة وأردته أرضا يتمنى الموت كل ليلة، أغرقتني في ظُلمات ذكرياتها كلما حاولت النجاة عاودتني بأخرى تطاردني، تلاعبت بي حتى أفقدتني إدراكي بمن حولي، قد بترت من داخلي الأمل حتى جعلتني أترجى الموت كل لحظة. سأعترف لها أن الله قد وعدني في منامي بأن حقي لن يضيع وأن القصاص آت لا محالة. سأخبرها عن تلك النصوص التي أكتبها وأخبئها عن الجميع وأنها كانت أكثر من ذُكر بها.

سأعترف لها أنني لم أنس كم كانت جاحدة على قلبي وحبي لها، وكم كانت خادعة أصابتني بالهلع، إنني لن أتوان عن إخبارها في أنها قادتني إلى قمة البؤس، وقادتني إلى مهالك الوحدة، وقادتني إلى أعماق الحزن، وقادتني إلى وسواس الفقد، لقد قادتني إلى هنا.»

كان يوسف جاثيا على ركبتيه يذرف أنهارا من الدموع قد ابتلت مذكراته منها، ينظر إليها وهو يقرأ بكل أسى وضغينة، يعوي كالأطفال الصغار، ويخفض رأسه بعدما انتهى ليقول لها:
ارحلي إن شئتِ قد قادكِ القدر إلى هنا ليُريكِ أي جُرم قد فعلتِ، ولأعترف لكِ بكل هذا، ولأخبرك أن ثمة قصاص لا بد أن يتم معكِ. اذهبي فإن عيني لا تود أن ترى أمامها من اغتال أحلامها وهشم قلب صاحبها وزينها بهالات سوداء تذرف كل يوم دموعا راحلة عنها.
مريم تبكي بشدة وابنها يبكي لبكائها، تحمله وهي مطأطئة الرأس تشعر بالأسي تجاه ضحيتها وضحية غرورها وأنانيتها، تمسح دموعها حتى لا يرى من معها آثار تلك الجريمة التي خلفتها تحت تلك الشجرة بالمُستشفى. جريمة تمت منذ عامين ونصف قُدر لها أن تكتشفها اليوم، ولو كانت تعلم أن زيارتها لابن أحد أقاربها المُصاب بمرض نفسي سيدفعها لهذا اللقاء لما أقدمت

على المجيئ! رحلت عنه ولكن أبدا لن ترحل منه، غادرته وتركته ساقطا على الأرض ليست المرة الأولى التي تُخلفه فيها ساقطا هكذا، إنه يسقط منذ عامين ونصف! رحلت مريم كعادتها وظل يوسف مغمورا في دموعه كما اعتاد أن يفعل. رحلت ولم تنطق إلا اسمه وهو لم يترك لها المجال أن تتحدث؛ لربما ما زال حديثها يربكه كما الماضي! تركها ترحل خوفا على قلبه أن يحيا مُجددا.

كان يومًا بعنوان: «أحكام القدر» هكذا عنونه يوسف، وأكمل مذكراته واضعا هذا اليوم كأهم يوم في حياته الأخرى؛ تلك التي عاصرها بعد الانتحار بالمستشفى ربما لأنه اعترف لها بشيء مما قد دفنه بداخله لسنوات.

ربما لن تهنأ مريم بنوم في هذه الليلة، لربما تُطاردها أشباح جريمتها بالمنام.

***

كان كل ما يأمله يوسف من الحياة أن يخرج من المُستشفى، شعر أنه وضعَ بها ظلما وقهرًا، وربما كان يحلم أن يسترد حقه من كل من ظلمه، أن يراهعم قد ذاقوا مُر ما ذاق. إنه يتطلع لأن يرى كيف أصبحت الحياة بالخارج؟ هل ما زال البشر متوحشين كما

كانوا؟! يريد أن يعلم كيف تعيش جدته وكيف تكون ظروفها؟ يأمل في زيارة عائلته بالمقابر، كان شغله الشاغل أن يعود لبيته حيث ذكرياته وماضيه الذي لا يريد أن ينساه. إنه يريد أن يُفك سجنه ويكون حرا طليقا، ربما هناك شيء بالخارج يود الخروج لأجله! شعر يوسف أنه بحاجة لأن يخرج من حيث هنا.

***

على الجانب الآخر..

مريم لا تعيش أفضل أيامها؛ فمنذ لقائها بيوسف وهي تشعر بغصة في حلقها، أدركت ما خلفته بذلك الشاب المُسالم الشريف؛ لقد دمرت حياته وأهلكته حقًا، ربما شعرت مريم بذلك الذنب الذي لا يُغتفر مما قادها إلى بعض المشاكل الوخيمة مع زوجها الدكتور مُصطفى؛ الذي بدأ يشعر بتغيراتها وأنها ليست بأفضل حال، وكلما حاول مفاتحتها في الأمر أنكرت أن هناك شيئًا يحدث معها، هو بدوره لا يشعر بالراحة في حياته معها، هناك شيء قد فُقد بينهما لن يجداه مُجددا وللأبد.

***

وداخل أروقة المُستشفى يدور اجتماع بين الأطباء ..

أحدهم يقترح أن ثمة مريض لم يعد يسعه البقاء، لقد مضى على

بقائه عامين ونصف، ولم نلاحظ عليه أي فعل خارج ويتحدث بكل عقلانية، وتصرفاته أضحت طبيعيه جدا، وأظن أنه لن يُعاود ما فعله مُجددا؛ خاصة أنه مُنذ أن دخل إلى هنا وهو لا يترك الصلاة أبدا، تملكه الإيمان فلا داعي من بقاء شاب مثله هنا ، عليه أن يُكمل حياته بالخارج، ما زال العمر أمامه طويلا. كان يقصد بكلامه يوسف وقد صدق جميع الأطباء على ذلك وقرروا أن يتم إخراجه من المُستشفى نهاية الأسبوع.

كان يوسف جاساً في الحديقة وحده فوجد أحد الأطباء يقترب منه يحوز في عمره ما يقارب الأربعين عامًا، جلس بجانبه وفاتحه في الكلام..

= إزيك يا باشمهندس يوسف؟

- الحمد لله يا دكتور.

= عامل إيه وصحتك أخبارها إيه؟

- كله تمام نشكر الله ونحمده.

= طب ده شيء جميل جدا.

= واضح إنك حبيت القعدة هنا واتعودت عليها.

- أنا ماحبتهاش بس اتعودت عليها، مش حبتها عشان الناس إللي هنا، لا عشان أنا دخلت ومكنش ينفع أدخل، حاسس إني ضاع من عمرى سنين هنا، بس الحمدلله اتعلمت فيهم حاجات

كتير جدا، وإللي هنا مش مجانين يا دكتور أغلبهم غلبانين جدا أدركوا سواد الحال إللي بره مش أكتر!

= أنا عارف إن في ناس كتير مش تعابنين، بس الخوف عليهم بيدفعنا إن إحنا نسيبهم هنا، أنا من أول ما شوفتك وشوفت ملفك وإنك مهندس ناجح جدا ومتخرج بتقدير كبير من الكلية واتكلمت معاك- أدركت إنك سليم، بس الخوف عليك من إللي حصلك خلاهم يسيبوك هنا فترة عشان يتأكدوا من إنك بقيت سليم مية في المية، أنا كان نفسي أخرجك من تاني يوم ليك هنا بس للأسف رفضوا خالص.

- يعني يا دكتور مش فارقة كتير هنا من برة أهو عمر وبيعدي!

= لا يا يوسف إنت لسة صغير أوي وقدامك الحياة واسعة وربنا هيكرمك فيها أوي عشان إنت صبرت واستحملت إللي محدش يستحمله، صدقني حياتك هتبقى مختلفه إن شاء الله.

= مش لما نخرج من هنا نبقى نفكر في الحياة، أنا فقدت الأمل في إني أخرج أساسا!

= بص يا يوسف إوعاك تفقد الأمل في أي شيء في الحياة، ربنا كبير جدا يا يوسف ثق فيه وخليك متأكد من إنه مش هيخذلك أبدا، هو موجود في كل الظروف وفي كل الحالات، مش كدة ولا إيه يا يوسف؟

• آه طبعًا، أنا مليش غير ربنا وهو حاسس بيا وعارف قد إيه صبرت واستحملت وكله عنده بحساب..

= أيوه كدة بحب فيك إيمانك.

• ده أهم شيء اتعلمته في الحياه؛ إيماني بربنا أهم من أي شيء إيماني به فقط هو إللي هيحميني ويصوني من شهواتي ولذاتي إللي بتوديني في داهية، الإيمان ده هو إللي بيمشيني على الطريق الصح دنيا وآخرة.

= طب بمناسبة الإيمان بقى ربنا باعتني أديك مُقابل لصبرك وإيمانك؛ يوسف أنا جاي أعرفك إنك خارج بكرة من المُستشفى، وإن دي آخر ساعاتك هنا والقرار صدر من المُستشفى واتصدق عليه، مبروك يا يوسف ربنا كرمه كبير وعندك حياة كبيرة وواسعة قدامك اعمل فيها الصح واتعلم من أخطائك إللي جابتك هنا. اتعلم يا يوسف إوعاك تعمل إللي عملته قبل كدة..

• أنا مش مصدق والله يا دكتور، أنا قولت مش هطلع من هنا إلا بمعجزة، أنا كنت فاقد أمل الخروج نهائيا، والله ما مصدق!! شكرًا يا دكتور مش عارف أقول لحضرتك إيه غير إني بوعدك إني هعيش حياتي صح ومش هكرر إللي عملته تاني، ألف شكر وحمد ليك يارب..

ربما كانت دموع يوسف في هذه اللحظات تنمُ عن فرح قد ذاقه منذ زمن، بدأ ينتابه شعور أن الله منحه فرصة أخرى، وأنه

سيسترد حقه شيئًا فشيئًا..

لم يُفكر إلا في توديع المرضى والمُمرضين؛ حقًا سيشتاق إليهم -وبالأخص المرضى- أو لنقل بالأخص أشباهه من البشر..

ولحظات الوداع دائما ما تكون أشد لحظات الحياة إيلاما، ولكنه اعتاد على الوداع فهذا ليس أول وداع له؛ إن الوداع يزوره في كل يوم عندما تعود ذاكرته للخلف مع أولئك الذين رحلوا عنه لا منه، يجتمع بذكراهم كل ليلة ويودعهم عند مُفترق النوم.

ودعهم جميعا بالبكاء كعادته، ولكن كان وداع أنس أحد أقرب أصدقائه له وداعا خاصا يحمل الكثير من الألم والأسى، وقال له يوسف: «سأنتظرك أن تخرج قريبا»، ابتسم أنس قائلا: «سأخرج عندما يموت ظالمي أو أموت هنا» ولكن يوسف وعده بأنه سيحاول إخراجه. ودعهم فردا فردا، لقد كانوا أهله وجد فيهم نفسه؛ قد ذاقوا ظلمه وقد فروا مثله.

ها قد خرج يوسف من ذلك السجن الذي قد زُج به قصرا، لم يكن يدرى أين يذهب ولكنه لم يتردد كثيرا يشتاق إلى بيته. يدخل إلى البيت ليشعر بالدفء بداخله؛ هنا حيث ولد، وهنا

حيث كان آخر لقاء مع عائلته، هنا حيث سُحبت الحياة منه، وهنا حيث يولد مجددًا.

***

مع مرور الأيام تسنت ليوسف فرصة زيارة جدته وأحمد صديقه وعائلته بالمقابر، ربما كانت لقطات مؤلمة عاشها يوسف بعد خروجه من المُستشفى، ولكنه قد وجد راحة في الذهاب إليهم جميعا. إن الشخص ليشتاق لروحه القديمة مهما غيره الزمن.

بدأ يوسف في متابعة حياته وأضحى شخصا طبيعيا جدا لا يُدرك في حياته إلا بعض الأشياء؛ الصلاة، وأصدقائه، وجدته، والسعي وراء مُستقبل يترجى فيه الله أن يكون مُغايرا لماضيه.

وبينما كانت الحياة تُعيد يوسف إلى ما كان عليه قبل وداعه لمريم، كانت الحياة مع مريم تتغير..

***

في إحدي الأيام كانت مريم تُنهي بعض الأوراق الخاصة بها لتستطيع أن تُسافر مُجددا برفقة زوجها، كانت تصطحب معها ابنها مالك. انتهت من هذه الأوراق وبينما كانت عائدة إلى

منزلها تمسك بيد ابنها وتمرُ من أمام ذلك الكافيه -الذي قابلت فيه يوسف عندما وصله خبر رحيل عائلته، شردت بذهنها تتذكر ما حدث وتشعر بقسوة الأيام معه، وفي نفس الوقت تذكرت ذلك المُر الذي أذاقته إياه بدورها، تشعر بالأسى لإنهاء حياته مُبكرا، وبينما هي مُنغطة في تفكيرها استفاقت على صوت صدمة كبيرة قد رجت المنطقة، ترى أمامها فجيعة تحدث؛ قد ركض ابنها من يدها لتصدمه إحدى السيارات بقوة، تنظر وهي لا تصدق ما حدث، تركض بشكل جنوني وتصرخ بشدة: «الحقووووني»، «ابني، إسعااف، إسعاف، اتحركوا بسرعة»، «مالك، مالك، فوق يا مالك»، كان منظرا كارثيا ومؤلما جدا؛ تمسك بفلذة كبدها غارقا في دمائه يلفظ آخر أنفاسه بين ضلوعها، تلطم على وجهها وتنبح صراخا وتنهال دموعا، تدعو الله أن يُبقيه حيا، تنظر إليه وتشعر أن الجنون أصابها! لا أفظع في هذه الحياة من أن تفقد أم ابنها وأمام عينيها، وربما كانت سببا في حدوث ذلك. تضرب برأسها على الأرض وتصرخ: «ابني راح، ابني راح»، تستنجد من حولها بكلمات تشعر وأنها جنونية: «رجعولي ابني بسرعة، عايزة ابني»، لا فقد فوق فقد وليدها، الجميع من حولها يُشفقون عليها ويبكون لهول الموقف وفجاعته، الإسعاف تصل أخيرا لتُنهي هذا الموقف الأليم، تأحذ الطفل وأمه لا تغادره، والسياره انطلقت كالصاروخ تجاه المُستشفى في محاولة لإنقاذ صاحب العامين..

زوجها وصلته المكالمة تُفيده أن ابنه مُصاب بالمُستشفى، يركض تجاه المُستشفى ويدخل ليُشاهد زوجته بثياب مُقطعة، ودموع تُغرق وجهها، وخدودها قد احمرت من اللطم والصك ترقد على الأرض، أدرك أنها كارثة قد حلت بولده، اقترب منها: «إيه إللي حصل؟» وهي لا تجيب إلا: «رجعلي مالك، أنا عايزة مالك، هاتولي مالك، عايزة ابني، مش همشي من غير ابني»، علم بدوره أن ابنه تعرض لحادث قوي وهو بغرفة العمليات.

كلاهما يجلسان على الأرض كطفلين قد فقدا أحد ألعابهم التي يحبونها كثيرا، كلاهما يدعيان الله أن يرده سالما، ولكنها أدركت استحالة ذلك؛ لقد رأته بأم عينيها يلفظ آخر أنفاسه في مشهد سيطاردها طوال حياتها. أن يلفظ ابنك أنفاسه بين يديك بخطأ منك؛ ما أفجعه من ذل، وما أهوله من موقف!!

الطبيب يخرج من غرفة العمليات بعد مرور ساعات، ينظر لوالد الطفل ووالدته بكل شفقة ويقول: «حاولنا بكل الطرق بس للأسف البقاء لله».

ربما لم يتدارك والده ما حدث، لقد كان الأمر مفاجئا له، أصابه

الذهول وأخذ يصرخ: «إزاي ده حصل؟؟ حد يجاوبني ابني راح فين؟!! إزاي ده حصل، ده مستحيل!!» هي لم تسطع تحمل الخبر قد فقدت الوعي نهائيا بمجرد سماعها الخبر، وزوجها أخذ في البكاء والنحيب على فقد طفله الوحيد والمُدلل، فقد فلذة كبده وروحه، لن يكفيه بكاء الدنيا وصراخها عن تهوين ما فقد، سيظل يعوى حتى الموت؛ فلا فقد بعد فقد الابن.

بعد مرور ساعات من هذه الكارثة حمل الوالد ابنه على يديه ملفوفا قد توفاه الله، في موقف تقشعر له الأبدان وتبكي له البشرية، يحمله بقوة قد أعطاها الله إليه، يبكي بحرقة، يتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه، قلبه مفطور وعيناه ذابلتان، قد قرر القدر أن يُذيقه مرارة الفقد وذله، يمشي وقدماه ترتجفان، جميع من حوله يخترقونه بنظرات الشفقة والحسرة.

لقد دفن قُرة عينه وفلذة كبده، دفن من كان بين يديه بالأمس يلاعبه، قد ودع من كان بالأمس رفيق نومه وحبيب روحه، لقد ترك قلبه في التراب ورحل، وضعه بنفسه مغمورا في التراب، لقد شعر بالموت في هذه اللحظات، مات بداخله كل شيء، إنه يرى بعينه سوء المنقلب وسواد القدر.

أما هي فما زالت في غيبوبتها تتمنى ألا تفيق منها للأبد، أن تلحق بولدها، ألا ترى الحياة مُجددا بدونه. تتمنى أن تترك آخر أنفاسها وتذهب معه تؤنسه في قبره وتلاعبه كما اعتاد منها، أن تنام بجانبه كما كان يُحب، أن تُطعمه بيدها كما كانت تفعل، إنها تود ألا تفارق روحها أبدا، لقد كان حياتها وما تحمله، لقد أضاع إهمالها قُرة عينيها.

لقد أفاقت من غيبوبتها بعد مرور يوم على الكارثة، تصحو لتجد بجانبها والديها: «ماما فين مالك؟» تجاوبها أمها: «مستنينا برة يا مريم لما تقومي هنشوفه»، «لا يا ماما هاتيلي مالك دلوقتي»، «حاضر بس تقومي»، «إنتِ كدابة مالك فين؟؟ قولي!! مالك مشي!! سابني!! رااح فين مالك؟!! قولولي راح فين؟؟» يجيبها والدها بكل ألم: «يلا يا بنتي قومي ربنا يعوضك»، تصرخ من أعماق فؤادها صرخة قد فطرت قلوب جميع من بالمُستشفى، نحيبها لا يتوقف، وصراخها يكاد يقطع أحبالها الصوتية، وضع مؤلم وحدث مُفجع

تمر الأيام ومريم وزوجها لا يتوقفان عن البكاء والنحيب، كل منهما مُنغمر في ذكرياته مع مالك، كلاهما لم يستطيعا تمالك نفسيهما، كل ليلة تمر بدونه يزداد انهيارهما. إن الحياة ستؤلمهما كثيرا بذكرى مالك، وستقتل مريم ذات مرة بذكرى كيفية رحيل

مالك وأحداثها التي تُطاردها كل ليلة! حتي إنها تخاف النوم إرتعادا من تلك الكوابيس التي تُذكرها بسوء فعلتها.

وبعد مرور شهر أو ما يزيد علم زوجها بكواليس الحادث، وأن إهمالها كان سببا رئيسا في وفاة ابنه الوحيد ، وبعدما تم تشخيصه مُسبقاً بمرضٍ سيمنعه من الإنجاب مُجدداً، لم يستطع أن يرى مريم بجانبه أو حتى بالقرب منه، شعر وأنها قد قتلته بإهمالها، رآها مُجرمة في حقه وفي حق ابنه، لم يستطع تقبل فكرة إكمال الحياة معها وهو يراها قاتلةٌ قد سلبته أعز ما يملك وكل ما يحوز، قرر في النهاية أنه لن يُكمل الحياة معها؛ لقد قرر أن يُطلقها.

***

لم تُكن مريم في انتظار المزيد من الضربات يكفيها رحيل وليدها وفلذة كبدها، إلا قد صدمتها الحياة بضربة أخرى؛ لقد علمت أن مُصطفى لا يسعه الاستمرار معها، لقد قرر أن يطلقها.

ربما كانت هذه الضربة القاسمة التي قضت على مريم نهائيا؛ فقدت كل شيء في غمضة عين، في ليلة وضحاها قد أضحت وحيدة تماما، ستأكل الوحدة ما تبقى منها.

تجلس وتبكي تُحدث نفسها: لقد فعلت بنفسي كل هذا، إنه حق يوسف أدفعه غاليا وباهظا؛ لقد ظلمته ظُلما غير هين، وكسرت ضلوعه ودمرت حياته، أو كنتُ أظن أن بفعلتي سأحيا راغدة! لا والله ما كان لي إلا هذا؛ قد حرمته شبابه ودمرت له حياته، قد قادتني الأنانية لأفتك بقلبه، لأهشم مشاعره، لأقضي على أحلامه كان مُحقاً عندما وصفني بالوغدة والأفعى، لقد أجرمت في حق الجميع لقد كنت مُجرمة.

شعرت مريم أن شبح يوسف قد قادها إلى مكان اجتماعهم لتسرح بخيالها لتترك ابنها يلقى مصرعه، لقد تذكرت كلمات يوسف بالمُستشفى؛ أنه قد علم مُسبقا أن الحياة ستقتص منها لا محالة كما تُدين تُدان، وكما تفعل يُفعل بك. لقد عصرت مريم نفسها ألما حزنا على قتلاها الثلاثة؛ فمنذ أن قتلت يوسف وهي اعتادت على قتل المزيد حتى فعلتها بابنها وزوجها بضربة واحدة. كانت مريم حبيسة فعلتها الأولى والتي بدورها لاحقتها لتُكمل جرائمها الثانية، إنها ضريبة الخيانة والخذلان.

لم تكن مريم تُحدث أي شخص بتاتا في غرفتها طوال الوقت تبكي وتنبح، تضرب أحيانا رأسها بالحائط، وأحيانا أخرى تضرب وجهها، تنظر إليها تخاف الاقتراب منها، تشعر وأنها مُدمنة أو ماشابه؛

عيناها مُخيفتان، وملامحها قد تضاربت من شدة الضرب، أكل النحيف جسدها، لا تُحدث بشرا، قد استفردت بها الوحدة تماما كما فعلت مع يوسف، ومن تستفرده الوحدة قد تفقده الصواب يومًا!

خافت مريم من كل ما يحدث معها، قد علمت بمرور الأيام أن يوسف قد خرج من المُستشفى، إنها لا تجد أحدا بجانبها ربما تود أن تعتذر له، حاولت الوصول إلى هاتفه ولكنها لم تستطع، كلما مرت الليالي عليها يزداد الأمر تعقيدا تشعر وأنها عل٣ي مقربة من الانهيار مُطلقا.

بينما كانت مريم تنهار حياتها، كان يوسف يحاول أن يبني له حياة جديدة قد تعوضه شيئًا مما فقد، يرجو الله أن يُبعد عنه كل شر قد يحيك به، يود فقط السلام والطمأنينة.

قررت مريم أن تحاول الوصول إلى يوسف لعلها تُنقذ شيئًا بحياتها، لقد سقطت حياتها فوق رأسها، ستغامر وتذهب إليه في البيت.

***

يوسف يجلس في البيت وحيدا كعادته، يُشغل الموسيقى الهادئة،

مُسترخ تماما؛ قد ذاق أخيرا معنى الراحة، لقد وهبه الله ذلك الشعور بعد صراع طويل مع الفقد وخيباته. وبينما هو مُسترخٍ كان الباب يطرق، استغرب الطارق ولكنه ذهب ليفتح الباب، لقد كانت المفاجأة أن الطارق كان مريم، فقال لها:

- نعم؟

قالت له وهي تبكي بحرقة وبشدة وشبه مُنهارة:

= يوسف ياريت تسمعني، أنا اتدمرت والله، أنا بموت، ابني مات بسببي وجوزى طلقني، أنا مش قادرة أعيش، أنا عارفة إن كل ده كان بسبب إللي عملته معاك، يوسف أنا آسفة، أنا عارفة إني قسيت عليك وضيعتك بس والله أنا بموت فعليا، ابني مات بين إيديا وهو سايح في دمه بسبب إهمالي، يوسف سامحني يا يوسف سامحني أرجوك، يوسف أنا مابقتش عايشة، مابطلش عياط، دماغي راحت مني، عايزة أموت ومش عارفة، يوسف إنت الوحيد إللي تقدر تساعدني، أرجوك يا يوسف، أبوس إيدك أنا محتجالك جدا، أنا بقيت مذلولة عشان جرحتك، ياريت يا يوسف تسامحني، أنا غلطت في حقك كتير آسفة يا يوسف.

- مين إنتِ؟

= يوسف إنت مش عارفني؟!!

- يوسف مين!! آسف العنوان غلط هنا مبقاش يوسف.

أردف يوسف هذه الكلمات وأغلق الباب في وجهها، ربما قد أغلق باب الحياة وهو يغلقه في وجهها. لقد تجرعت مريم ذُل جواب يوسف وخيبتها في أن محاولتها الأخيره في الحياة قد فشلت، رحلت وهي تبكي قد فعلت كل هذا بنفسها؛ قد قتلت نفسها مع ضحاياها.

بينما كانت مريم تقول كلماتها ليوسف، كان يوسف يسأل نفسه: وهل لو لم يحدث ما حدث معها كانت لتتذكر اسمي حتى؟ ما زالت الأنانية تأكلها، ما كان عليها المجيئ، لقد أغلق الباب وكأنها لم تأت، لقد أدرك يوسف أنها لم تكن تستحق حتى الذكرى، فكلما تذكر ما حدث له لعن يوم لقائهما.

وصلت مريم إلى بيتها، ربما أدركت أن الحياة قد قررت أن تعاقبها شر عقاب وأن تأخذ الصاع صاعين، ما كان أبدا سيمر ما فعلته به مرور الكرام، كان العقاب آتيًا لا محالة ولكنه كان عقابا شديدا ربما سينهيها ذات ليلة من الوجود!

كان جلوسها في غرفتها ليلا , أشد رُعبا من تلك الأفلام المليئة بالدماء والأشباح، إنها تواجه كل هذا في غرفتها كلما حاولت

الهرب تلاحقها الذكريات وأشباح قتلاها، بدأ عقلها يشت جنونا مما يراه كل ليلة لا يسعه تحمل هذا الكم من الأسى والمُطاردة، لقد تعب حتى اقترب أن يهلك.

تتوالى الأيام على مريم وكأنها ضربات على رؤوسها!

وفي إحدي الليالي سمع والداها صوت تكسير شيء ما وصوتًا مرتفعًا بغرفتها، دخلا عليها وجداها تهشم كل شيء بالغرفة وتتفهوه بكلمات غريبة مثل: «أنا مش قتلتهم، هم كمان قتلوني»، «كلهم سابوني لوحدي»، «أنا مش هكمل، مش هكمل»، حاول والداها إخماد غضبها ولكنها لا تتوقف، تتصرف كالمجانين تماما! ذُهل والداها من الموقف، إنها تزداد غضبا وإنهيارا، والدتها اتصلت بالإسعاف وطلبت النجدة. وما إن وصلت سيارة الإسعاف حتى كانت مريم قد قاربت على تهشيم نصف البيت، وبعض جسدها ينزف دما! قد فر والداها من البيت وانتظرا مجيء الإسعاف، وكانت مريم قد تعبت تماما من ذلك الانهيار حتى وقعت فاقدة وعيها. أخذوها إلى المُستشفى، وقد روى والداها للأطباء ما حدث.

وبعد مرور يومين تلقى والداها صدمة كبيرة بأن إبنتهما الوحيدة قد أضحت مُختلة عقلية وسيتم تحويلها إلى مُستشفى الأمراض

العقلية.

كانت هذه الضربة قوية على والديها وعليها هي الأخرى -إن كان بموسعها أن تُدرك بعد الأن ما يدور معها، ولكنها أبدا لن تنسى أنها من فعلت كل هذا عندما قادت يوسف من قبل إلى حيث وصلت هي.

وماذا كانت تظن مريم أن ترى في حياتها؟! أكانت تظن أن بفعلتها بيوسف ستنجو؟! أكانت تنتظر من القدر أن يُسامحها؟! أكانت تتوقع أن تُكمل حياتها الرغدية بعدما قضت على يوسف؟! صدقوني كان على القدر أن يقتص منها، كان لا بد أن تتذوق مريم مرارة ما أذاقته لذلك المسكين، كان حتميا أن تدور الدائرة لتقع هي بها حيث ذلك الظلام الحالك الذي وقع به يوسف بفعل منها ، كان سيُطاردها القصاص حتى ينال منها. كانت مريم تحفر بيدها حفرتها عندما طعنت يوسف بسكين الغدر والخذلان؛ منذ تلك اللحظة وهي وضعت نفسها هدفا للقصاص حتى انقض عليها في الوقت المناسب.

لقد عاش يوسف سنيناً عِجاف قد مكث بداخله الأسى والقنوط طويلا، قد رأي بعينيه ذُل الخيانة وقد ذاق مرارة فظاعة الفقد وفجاعته، قد جعلته هي أن يكره الوجود والحياة حتى فر ذات يوم بالانتحار، ولكن الله لم يُعطه مناله، كان يوسف مثالا يُحتذد به لمن فقد في حياته، ولمن خُذل في حياته، ولمن كسر الحزن ضلوعه تباعا، ولمن سقط وسقط دون عون، ولمن حاول وفشل

وحاول وفشل وحاول وفشل، ولمن ظلمه القدر وضاقت به السُبل، ولمن أدرك سواد الحياة وفظاعتها، ولمن وجد الوحدة مهربا آمنا له من جحود البشر بأن يصبر كما صبر يوسف. لقد كان صبر يوسف لا يُضاهى، ربما نال في الأخير رضا الله ونال حياة ربما تكون أكثر صدقا معه، وربما كان صبره مفتاحا لإيمان في هذه الدنيا قد ينتهي به المطاف بجنة الآخرة. صبر يوسف ففاز بالكثير؛ ربما قد فاز بنفسه أخيرا بعدما أضلها لأعوام في ظُلمات الطريق ونكباته.

شتان بين ما حدث مع كليهما، قد ذاقا المُر ولكن يوسف سيعيش مرفوع الرأس قد رد له القدر حقه، وقد رُدت له مظلمته، أما مريم ربما ستعيش تدفع ثمن فعلتها مع يوسف؛ ثمن خذلانها له وقساوة قلبها عليه، ستدفع ثمن تركه وحيدا تماما قد أفرغت جميع من حوله، ستدفع ثمن إقدامه على الانتحار هروبا من ذكراها، ستدفع ثمن تقييده بالمُستشفى ونعته بالمجنون بينما كان في أوج عقلانيته. إن مريم ستدفع ثمن كل ليلة قد صرخ يوسف رعُبا من وحدته صراخا لا يتوقف كل ليلة ولم يجد من يشعر به، لا بد أن تدفع الثمن؛ فكما تُذيقُ غيرك لابد أن تذوق من نفس الكأس التي أذقتها له، ولا يظلم ربك أحدا.

عادة ما تشعر أن علاقات الحب تؤول دائما للفشل، ولكن الحب يحتاج فقط لطرفين صادقين قد عزما على أن يُحاربا العالم وفجاعته، طرفين قد أدركا أن الحياة ستعاندهما كثيرا وهما بدورهما قررا الصمود. إن الحب لا بد أن يتكئ على أساس قوي ينشأ بينهما إن سقط أحد الطرفين كان الآخر عونا حيث سقط. أؤمن تماما أن الحب مُقدس لا يجب التلاعب بمعانيه، وأنه بريئ من أولئك الذين يتفوهون بمعرفتهم به بينما هم أكثرهم جهلا عنه! قد يتعرض الحب لنكسات ونكبات ولكنه أبدا لن ينتهي، مهما أضحي أحد الطرفين رخوا ضعيفا سيكون الحب قوته ويكون الآخر سندا له. إن الحب أجمل ما قد حدث في الحياة أو سيحدث، ولكن أكبر ما يُخيفنا منه هو اختيارنا لمن سيرافقنا في درب الحب. كم يكون درب الحب طويلا ومُتعبا!، إنه يحتاج لأولئك الصادقين والمرابطين؛ أولئك الذين لا يعرفون كيف يخذلون، أولئك الذين لا تغترهم المظاهر ومتيمون بنقاء الجوهر، أولئك الصابرون على عقبات الدرب وسقطاته ، أولئك المخلصون الذين قد عاهدوا فأوفوا، أولئك الصابرون مهما عرقلتهم ظروف الحياة زاد إصرارهم على الوصول. إن الحب لا يحتاج إلا لأولئك الصادقين المثابرين، إن الحب يحتاج فقط أن تُوفى الوعود.

قد باءت علاقة يوسف ومريم بالفشل، ربما كان أحدهم أقل صدقا من الآخر أو بمعنى أن أحدهم قد خان وعوده مع الآخر، كانت مريم لا تستحق يوسف ولا حبه فكان لا بد أن تسقط العلاقة.

على الجانب الآخر كان حب ندى وأحمد المليئ بالتعثرات والمشاكل التي كانت مريم تنتقدها فيهم قد وصل إلى نهاية ناجحة وحياة وردية، هنا تُدرك أن كليهما كان صادقا، قد أوفى كلاهما وعوده مع الآخر، لقد حاربا الواقع فداءً لحبهم الصادق، فإن الحب ليس بكثرة التعثرات إنما بثبات الأفعال. لقد كان انتقاد مريم أضحوكة في نظر يوسف بعد مرور السنوات، فلقد أدرك يوسف أخيرا أن الحب ليس إلا صدق قد نشأ كلاهما عليه.

لقد تعلم يوسف في هذه الحياة ما لم يتعلمه في المدارس والجامعات، لقد تفننت الحياة في ترقيعه حتى يُدرك جيدًا ما يدور حوله، كان ثمن هذا التعليم باهظا جدا، ولكنه قُدر له أن يدفعه. كان مُجبرا على تعلم هذه الدروس التي كانت قوية وصعبة، ولكنه حتما قد نهل منها الكثير، قد أضحى في كل مكان في جسده علامة لدرس قد تعلمه إن نساه يومًا نظر إلى تلك العلامة ليتذكر ما سقط فيه يومًا حتى يتخطاه ناجحا. قد توالت

عليه الدروس ورغم أنه قد تعب منها لكنه في النهاية تحمل جحودها وصبر على ثُقلها، ومن منا تُعلمه الحياة مجانا؟! جميعنا يدفع الثمن ولكن كل يدفع على قدر تعلمه؛ فالدروس متفاوتة في صعوبتها والقدرة على اجتيازها.

في الواقع على الإنسان أن يُقدس أخطاءه التي سقط فيها، أكان ذلك سهوا أو إدراكا حتى لا يسقط فيها مُجددا، فإن الحياة قد تضعنا في المحن لنتعلم من صعوبة تخطيها حتى نبتعد في السقوط فيها في المرات القادمة، فمن يسقط في الأولى لا بد أن يجتاز الثانية، ومن لم يفعل يؤسفني القول أنه سيسقط مرارا وتكرارا دون أن يتعلم منها شيئًا، فنحن فقط نحتاج لصفعة واحدة قوية لنكمل الحياة ونحن منتبهون في بقية الطريق.
أضحت حياة يوسف مواتية لأن يُكملها، قد هيأ الله له الظروف ليجد نفسه تتطلع لإكمال الحياة، قد وهب الله يوسف الكثير بعد خروجه من ذلك النفق المُظلم الذي أطال فيه المكوث. كان يوسف على موعد مع حياة مُغايرة بعد ذلك الإفراج الذي حصل عليه؛ قد أصاب الإيمان قلبه كأول شيء فاز به بعد خروجه، وتم تكريمه من قبل الجامعة على صبره على ما مر به من ابتلاءات، ورغم كل ما مر به قد حصل على تقدير عام امتياز من كلية الهندسة، وبعد عودته للحياه مُجددا قد قدم يوسف أوراقه

للكلية ليتم تعيينه كمعيد بعد إجماع أساتذته على ذلك واضعين في عين الاعتبار ما مر به من نكبات في حياته يستحق عليها هذا التتويج، وكان يوسف لا يُصدق ما يحدث معه وأنه سيُصبح مثالا للطلبة ومثالا للكثير من الشباب؛ أنه مهما خذلتك الحياة أبدا لن يخذلك الله، وأن الصبر مهما طال لا بد أن يأتي الفرج. ها قد نال يوسف جزءا من العوض بعد ما ذاقه طوال حياته الماضية وما زال ينتظره المزيد في قادم المواعيد. إن الله يُجزى المُحسنين دائما والصابرين على كروبهم.

***

وعلي الجانب الآخر ما زالت مريم تنال عقابها في مُستشفى الأمراض العقلية، إن نظر أحد إليها قد يبكي دهرا شفقة على سوء منقلبها، لقد أودت بنفسها إلى الهاوية، لقد أضاعت حياتها بأنانيتها المُفرطة، لقد أضاعت بسذاجتها كنزا كان بين يديها حولته إلى قيود كبلتها إلى أن يرضى الله عنها، لا يضل ربي ولا ينسي.

يوسف قرر أن يذهب إلى جدته ليُخبرها بأنه تم تكريمه وبأنه سيُصبح مُعيدا بكليته، يود أن يُخبرها أن الله أبدا لم ينساه، وأن صبره على بللئه بدأ يُجزى عليه. إنه سيذهب إلي جدته ويأخذها إلى حيث عائلته بالمقابر ليُثلج صُدورهم بذلك الخبر الذي كان

يحلم به والداه، وليخبرهم أنه صبر وأكمل الحياة رغم أن الحياة أرهبته كثيرا وسلبته كل شيء، ولكن ثقته في الله لم تنته أبدا، وأنه حاول رغم أنف القدر الذي أسقطه من قمته إلى القاع، سيقول لهم يوسف إنه كان يود أن يُشاطروه فرحه وربما سيبكي ولكنه بكاء يختلف عما سبق؛ إنه بكاء ممزوج بالفقد وفرحة الفرج.

ربما قد تألم يوسف كثيرا ولكن أبدا ما يظل الأمر هكذا، لا بد أن ينتهي الحزن يومًا.

قد تجهز يوسف جيدًا كتلك الأيام الخوالي ما قبل نكباته ولكنه كعادته تأخر عن الموعد، نزل من البيت سريعا وتوجه إلى موقف الميكروباصات.

ركب الميكروباص وجلس يأخذ نفسا عميقا، وبينما كان الميكروباص يتحرك سمع بجانبه صوتا رقيقا جدا وحنونا يقول له: «اتفضل معاك أجرة واحد»، نظر إليها وسرح في عينيها الجميلتين وملامحها الرقيقة، وبينما كان شاردا هكذا تذكر ذلك اليوم الذي سقط فيه مع مريم وكان مُشابها لذلك استفاق سريعا من شروده وقد اضيقت عيناه وانتفض قلبه وقال بصوت ممزوج بالجدية: «آسف مابقتش ألم الأجرة».

لقد أضحى يوسف نجيباً وواعياً لهذه الحياة، أبداً لن يسقط مُجدداً ...

إنتهت

رواية « قادتني إلى هنا « للكاتب / محمود نصرالله .
يدرس بكلية الحاسبات والمعلومات جامعة الزقازيق الفرقة الثالثة ، هذه الرواية هي أولى روايته ، والتي يُناقش فيها عقبات المجتمع والعلاقات العاطفية المُضطربة .

يمكنك متابعة كتابات الكاتب وخواطره عن طريق :-

البحث على الفيس بوك عن صفحة « سطور مفقودة » أو عن طريق البحث عن « Nassrallh ٩٩ » .

- أو متابعة الاكونت الخاص به « Mahmoud Nassrallh» عن طريق البحث عن « Nassrallh٣٣ » .

مسار
للنشر و التوزيع

01020439639